مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الدكتورة ليلى الصباغ

أول امرأة عضو في مجمع اللغة العربية

١٣٤٢ - ١٤٣٤هـ
١٩٢٤ - ٢٠١٣م

تأليف
الدكتور محمود الحسن

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الدكتورة ليلى الصباغ

أول امرأة عضو

في مجمع اللغة العربية

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الدكتورة ليلى الصباغ

أول امرأة عضو في مجمع اللغة العربية

١٣٤٢ - ١٤٣٤هـ

١٩٢٤ - ٢٠١٣م

تأليف

الدكتور محمود الحسن

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

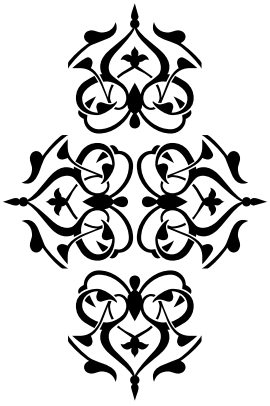

الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله

١٣٤٢- ١٤٣٤هـ

١٩٢٤- ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تقديم ٩

مقدمة المؤلف ١١

الفصل الأول

ليلى الصباغ رحلة علمية وآفاق فكرية

- ليلى الصباغ ورحلتها العلمية ١٩
- البلدان التي زارتها ٢٩
- ليلى الصباغ في مجمع اللغة العربية ٣٠
- وفاتها ٣٢
- الإنتاج العلمي للدكتورة ليلى الصباغ: ٣٤

أولاً- في مجال التأليف ٣٥

ثانيًا- في مجال التحقيق ٣٥

ثالثًا- البحوث والمقالات ٣٦

رابعًا- الإنتاج العلمي غير المنشور ٣٩

خامسًا- النشاط العلمي والمؤتمرات ٤١

بحوثها المنشورة في مجلة المجمع ٤٣

- منهجها في التأليف ٤٦
- منهجها في التحقيق ٥١
- تجربتها في النقد الأدبي ٥٥
- موقفها من قضايا المرأة ٧٣

الفصل الثاني

مؤلفات الدكتورة ليلى الصباغ

- **المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني.....٧٩**
- **المرأة في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨٣**
- **دراسة في منهجية البحث التاريخي ٨٨**
- **تاريخ العرب الحديث والمعاصر ٩٧**
- **معالم تاريخ أوربة في العصر الحديث ١٠٠**
- **مختارات من كتاب خلاصة الأثر ١٠٤**
- **الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني..... ١٠٩**
- **نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع ١١٤**
- **من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي..... ١٢٥**
- **فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو ١٣٥**

الخاتمة ١٣٨

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

تقديم

لم يكدِ الأتراك يجلون عن سورية حتى قامت فيها حركة نشطة لاستبدال اللغة العربية بالتركية، وبناءِ الوطن الحرّ. وقد تمَّ ذلك بسرعةٍ وإتقان.

ورأى «مجمع اللغة العربية بدمشق» في هذه الحركة تجربةً فريدة تستحقُّ الدراسة والتحليل، ويستحقُّ الذين شاركوا فيها أن يُعْرفوا ويُشْكروا وتُنْشر سِيرُهم وآثارهم، فأوكل في سنة ٢٠٠٧م إلى لجنةٍ من أعضائه القيامَ بالتعريف بأعضاء «المجمع العلمي العربي»[1] الأوائل، والكتابةِ عمَّن لم يُكتب عنه منهم، وجمعِ ما أمكن من آثارهم ونشره اعترافًا بفضلهم وإحياءً لذكراهم.

وقد قامت اللجنة بواجبها على خير وجهٍ وأرضاه، ووضعت برنامجًا لعملها، واستكتبَت عددًا من المؤلِّفين الكبار، واختارت منهم مَن كانت تربطه بالمؤلَّف عنه رابطةُ صداقة أو زمالة أو نسب. وفي إثر ذلك بدأ المجمعُ إصدارَ سلسلةٍ من الكتب عن أعضائه المؤسِّسين ومَن تلاهم. وصدر العددُ الأول من هذه السلسلة في سنة ٢٠١١م، ومازال المجمع ماضيًا في إخراج بقيَّتها.

(١) الاسم السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق.

ويسرُّ المجمع أن يُصدر اليوم كتابَه عن عضو المجمع الدكتورة ليلى الصباغ. وهذا الكتاب من تأليف الدكتور محمود الحسن الذي كانت تربطه بالدكتورة ليلى الصباغ رابطة العلم والعمل.

والمجمع إذ يرجو أن يُتمَّ ما بقي من سلسلة كتبه عن المجمعيين الراحلين - رحمهم الله - في أقرب وقت، ليتوجَّه بالشكر الجزيل إلى لجنة أعمال أعضاء المجمع وإلى السادة المؤلِّفين على جهودهم الطيبة المثمرة.

مجمعُ اللغة العربية بدمشق

* * * * *

مقدّمة المؤلف

حين يبتسم النهار تختالُ الأرضُ بأثوابها، ويَنتشرُ الجمال في فضائها، ويرنو كلُّ حيٍّ إلى خُضرة النبات، وألوان الطبيعة، وأغاريد الطيور، فيفيض وجدانه بأحاسيس يسكبُها التأمُّل قصصًا وأحلامًا في جوانب الكون، ويرتسمُ أمام عيونه، في تموُّج الأفاق، وامتداد السهول، وتعرُّج الأنهار، حكايةُ الموت والحياة، وصُوَرٌ ملوَّنة وأخرى شاحبة لمستقبل منتظَرٍ مجهول، ثم يعود كلُّ حيٍّ يغني للحياة، بصوت ينبعث من رياض السعادة والفرح، أو صوت ينطلق من كهوف الوحشة والأشجان.

وحين يُولد الليل يتطلع الخلقُ لنور القمر، ويرسمون تحت خيوطه الذهبية أزاهير أمنياتهم، وقصص عشقهم، وتطلعات أرواحهم العطشى إلى الحبّ والأمان، ويعودون بعد أن تتعب حناجرهم من المناجاة، وتتهاوى قواهم تحت سلطان السَّهر، وتتراخى جفونهم المشتاقة للكرى والسكون، بين مبتسمٍ راضٍ عن الحياة، وآخر ينام على همومه ينتظر أن تجود عليه السماء بالفرج والراحة.

وفي تعاقب الليل والنهار يدور الزمن ويُسرع الخطا، فترتفع شجرة وتَيبس أخرى، وتتفتح وردة وتذوي زهرة، ويتفجَّرُ نبعٌ ويجفُّ نهر، وتمضي سفينة الحياة حاملة على ظهرها وفي أحشائها ألوان البشر، ومعادن الناس، وهم بين بائس حزين وفَرِحٍ مسرور، وبين شجاع يتطلع إلى المستقبل بنظرات التحدِّي، ومستسلمٍ يُعلِّلُ نفسَه بالأمل ويُلقي أمنياتِه في مهاوي المستحيل، والجميع يُدركون أو يجهلون أنهم يسيرون إلى مصير محتوم، ونهاية لا بدّ منها.

هكذا يتسلَّل الموت إلى سفينة الحياة، فيتربَّص بالأحياء، ويُلقي شباكه بعنف، ثم يجذبها إليه، فيأخذ من بينهم في كل مرة مَن استوفَى عمرَه، وفاز من دنياه بما قُسِم له من نصيب.

وهكذا يمرُّ الموت في عجلته المعهودة، فتخلو منازلُ من أهلها، وتفرغ الديار من الأحبة، ويبقى الزمن وحده يتمطى ويتثاءَب في عيون بعض الأحياء، على حين يمنح آخرينَ صبابةً من اللهو، أو غَرفةً من السعادة، أو شربةً من النسيان، لكنه في النهاية يُسلمهم للموت غير عابئٍ بأنهم ملؤوا جوانبه يومًا بابتسامات وتأوُّهات غاب صوتها، واختفى ضجيجها، ومضى أصحابها عن الدنيا، وتحوَّلوا في لمحة بصرٍ إلى ذكريات.

لقد فارقتنا الدكتورة ليلى الصباغ، وتحوَّلت عن هذا العالم، بعد عقود من العمل المتواصل، والتضحية المستمرة في سبيل الإنسانية.

فارقتنا بعد أن تركت لنا كنوز فكرها، وخلاصة تجاربها، ولمساتٍ من طيب وجدانها، ونفحات من ذكراها التي لا تُنسى.

وقد دفعني حبي وإجلالي لها، وإعجابي بعلمها وفكرها وتواضعها، وعلاقتي الطويلة بها، التي امتدت على ثماني سنوات، إلى أن أكتب عنها، لعلي أُعرِّف الناس بهذا النموذج الإنساني والعلمي، الذي يُمثِّل بالنسبة إليَّ النموذج العالي، والقدوة الصالحة، في العلم والعمل والخلق القويم والسيرة العطرة.

وحين شرعت بالكتابة عنها، تسابقت إلى ذاكرتي صورة المرأة الطيبة ذات الابتسامة الخفيفة، التي يبوح وجهها بأسرار نورانية، ويحاكي بإشراقه صفاءَ قلب يفيض بالحب والإنسانية، وتلك العالمة التي كنتُ أُعجَب كثيرًا بمداخلاتها ومشاركاتها في أعمال مجلس المجمع، ولجنة المجلة، وتلك الإنسانة المؤمنة التي تُسلِّم أمرها لله وتحمده في كل وقت، وهي مطمئنة بأن الله معها يحفظها ويتولاها ويُسخِّرها فيما يُحبّ ويرضَى.

ولعل طبيعة المنهج العلمي تفرض على مَن يتصدَّى للكتابة في هذا الباب أن يُلمَّ بكل ما تركته الفقيدة من مؤلَّفات، وأن يطَّلع على كامل كتاباتها، وأن يسأل عنها مَن عاشوا معها وكانوا قريبين منها، وكانت المفاجأة الأولى حين طلبت مؤلَّفاتها من مكتبة المجمع، فإذا بي أحمل الكثير من الأسفار، التي ربما يحتاج تأليفها إلى فريق من المختصِّين!

وكانت المفاجأة الثانية حين بدأت بقراءة مؤلَّفاتها، فوجدت نفسي أمام عالمة تغوص في الجزئيات، وتُتقن التأليف والاستنتاج والمحاكمات المنطقية، وتتحرَّى كل جوانب الفكرة وتُلمّ بها، وتعرضها بأسلوب أدبي يُضاهي أساليب المختصين في اللغة والأدب.

أيقنتُ بعد ذلك أن العلم لا يقتصر على جنسٍ بشريٍّ واحد، وأن المرأة تمتلك من الإرادة والتصميم والطاقة والصبر ما يُضاهي ما يمتلكه العظماء من الرجال، ووجدتني أستحضر مرارًا، وأنا أقرأ لها وأكتب عنها، قول الشاعر:

ولو أنّ النِّساءَ كَمَن فَقَدْنا لَفُضِّلَتِ النِّساءُ على الرِّجالِ

وقد توزَّع ما كتبته عن الدكتورة الصباغ على فصلين.

عرضتُ في الفصل الأول سيرتَها الذاتية وتحصيلَها العلمي، ومؤلَّفاتها المطبوعة والمخطوطة، وبحوثها المنشورة في المجلات العلمية المحكمة، ثم تحدَّثتُ عما يتميَّز به منهجها في التأليف، وعن خصائص منهجها في التحقيق، مع دراسة مفصلة لتجربتها في النقد الأدبي، وعرض موجز لموقفها من حقوق المرأة، وحثها المتواصل للمرأة العربية على العلم والعمل، وعدم تبديد الطاقات في اللهو والأحاديث الباطلة.

وخصَّصت الفصل الثاني للتعريف بمؤلَّفات الدكتورة ليلى الصباغ، وما تحويه من مادة علمية، وأفكار جديدة، وأسلوب متميِّز. وقد تناولت بالدراسة والعرض جميع مؤلَّفاتها المنشورة مرتبة بحسب سنة النشر، وهي:

المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، والمرأة في التاريخ العربي قبل الإسلام، ودراسة في منهجية البحث التاريخي، وتاريخ العرب الحديث والمعاصر، ومعالم تاريخ أوربة في العصر الحديث، ومن أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: المؤرخ المُحِبّي وكتابه خلاصة الأثر، والجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع، ومن الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي، وفلسطين في مذكّرات الفارس دارفيو.

وأهم المصادر والمراجع المعتمدة في هذه الدراسة: مؤلَّفات الدكتورة ليلى الصباغ، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، وحفل استقبالها عضوًا جديدًا في المجمع، وحفل تأبينها، ولقاءاتي المتكررة بها في المجمع على مدى ثماني سنوات، بين عامي (٢٠٠٥- ٢٠١٣)، والانطباعات والآراء التي زوَّدني بها زملاء لها في جامعة دمشق، وأصدقاء عرفوها في الجامعة والموسوعة العربية والمجمع، وأقارب عاشوا معها وعرفوا صورتها الإنسانية عن قرب، إضافة إلى معلوماتي عن مناهج التأليف والتحقيق ومدارس النقد الأدبي، وإسهامات العلماء في التاريخ والعلوم الإنسانية.

والمنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي، الذي يقوم على الاستقراء والاستنتاج.

وكان بودِّي أن أكتب سيرتها الذاتية بأسلوب أدبي، اقتداءً بطريقتها في كتابة السِّيَر والتراجم، ولكن الالتزام بالمنهج الذي اختطته اللجنة المجمعية،

التي تُشرف على الكتابة عن الأعضاء الراحلين، جعلني أختار طريقًا وسطًا بين الأسلوب الأدبي الذي يُغرق في الصور والمشاعر، والأسلوب العلمي الصارم الذي يهتم بإظهار الحقائق والمعلومات، أما في باقي الدراسة فقد التزمت الأسلوب العلمي لأنه أكثر ملاءمة من الأسلوب الأدبي في إظهار المعلومات والأفكار، وفي الإيجاز المطلوب في هذه الدراسة.

والمأمول من هذه الدراسة أن تكون وثيقة تاريخية وعلمية، تَحفظ بين سطورها سيرةَ إنسانةٍ عالِمةٍ نَذَرتْ حياتَها لخدمة العلم والحضارة الإنسانية، وأضافت إلى العلم صرحًا جديدًا بنته من عصارة التجارب، وزبدة الأفكار، وتجليات المواهب والإبداع.

وأسأل الله أن أكون قد وُفِّقت في أن أقدِّم للقارئ الكريم سيرةً علمية كاملة للدكتورة ليلى الصباغ، يجد فيها الباحثون ما يحتاجون إليه من معلومات عنها وعن جهودها العلمية، كما يجد فيها الإنسان العربي، والمرأة خاصةً، نموذجًا إنسانيًّا يُقتدى به في العلم والعمل والتضحية والصبر، ومثالاً شامخًا للتمسك بالفضيلة والعفة والصلاح والخلق القويم.

وأرجو من الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يعدَّه لي من الصالحات، إنه سميع مجيب.

دمشق ٢ شوال ١٤٣٦هـ

١٨ تموز ٢٠١٥م

د. محمود الحسن

* * * * *

الفصل الأول

ليلى الصباغ
رحلة علمية وآفاق فكرية

يتضمن هذا الفصل عرضًا للسيرة الذاتية والعلمية للدكتورة ليلى الصباغ، وفيه إضاءة على المحطات الهامة التي مرَّت بها، وكان لها تأثير في تكوين شخصيتها العلمية والإنسانية، مع حديث موجز عن منهجها في التأليف والتحقيق، وتجربتها في النقد الأدبي، وموقفها من المرأة، ودعوتها للمرأة العربية إلى اعتناق طريق العلم والعمل، والإسهام بما تمتلكه من جهد وطاقات في تطوير المجتمع، وإغناء الحضارة الإنسانية.

ليلى الصباغ
ورحلتها العلمية

سمعتُ عنها أول مرة حين كنتُ طالبًا في كلية الآداب بجامعة حلب، فأصبح الاسم محفوظًا في ذاكرتي، تحفُّه مظاهر الوقار والإجلال، وهي ترفرف بصمت حول شخصية نسائية علمية، كثيرًا ما تبدَّلت صورتها في عقلي، وأنا أرسمها من وحي الخيال، قبل أن أعرفها عن قرب.

وفي عام (٢٠٠٠) كُلِّفتُ تدريسَ مادة اللغة العربية في مدارس دمشق، فالتقيتُ زملاءَ من طلاّبها يُدرِّسون مادة التاريخ، فكنتُ ألمحُ في وجوههم وعيونهم، حين يذكرونها كلَّ ملامح الحب والإعجاب والاحترام، وكانت أحاديثهم عنها تزيد صورتها في ذهني رسوخًا ووضوحًا، وتجعلني أتطلَّع إلى لقائها والتعرف إليها.

وفي عام ٢٠٠٥ انتقلتُ للعمل في مجمع اللغة العربية بدمشق، فأتاح لي عملي الجديدُ فرصةً للقاء أساتذةٍ كبار، وعلماء في المجمع، طالما سمعت عنهم، ولم أعرفهم من قبل. وكانت منهم الدكتورة ليلى الصباغ.

تأملتها طويلاً، وأنا أستمع إلى حديثها أول مرة، وفتحتُ خزائن الذاكرة أستخرج منها صور الدكتورة الصباغ التي ارتسمت فيها مرارًا وبألوان مختلفة زاهية، وقارنتها على عجل بصورتها الحقيقية التي شاهدتها، فرأيتُ كلَّ ما كان

في ذاكرتي من صور يتضاءَل ثم يتلاشى أمام عظمة الصورة الحقيقية، التي ما تزال محفوظة عندي ولن تتغيَّر.

وفي هذه الصورة تظهر الدكتورة الصباغ بيضاءَ الوجه، زرقاءَ العينين، معتدلة الطول، ممتشقة القامة، لطيفة الحديث، كثيرة الابتسام، تقف على عتبات الثمانين من عمرها، وقد ترك الزمن على وجهها خطوطَه المعتادة، دون أن تظهر عليها علامات الوهن والشيخوخة.

كانت شديدة الحياء، هادئة الطباع، تميل إلى البساطة والتواضع، والدعابة المتزنة. وهذه الصفات جعلتها تفوز بقلوب مَن عرفوها، فمنحوها كل الحبّ والتقدير.

كانت تدعو دائمًا إلى الخُلق القويم، والسلوك الحسن، والتحلي بمكارم الصفات، وترسم أمام المرأة العربية طريقًا واضحًا للنجاح يمر عبر العفة والفضيلة والعمل المتواصل والعلم والاجتهاد، لا عبر الكسل والبلادة والدعوات الجوفاء إلى التحرر من التقاليد، والتباهي بهدم الأعراف والخروج على الدين والعفة والأخلاق.

كانت قليلةَ الكلام، تختار كلماتِها بعناية، ولا تُعيد الحديث أو أجزاءً منه، لأنها تقرأ في عيون مَن تحدِّثُه وَقْعَ كلامها ووصولَ معناه إليه. وحين تتحدث في أمور الحياة يكون حديثها في غاية البساطة، ومحفوفًا بابتسامة خفيفة تزيد وجهها تألُّقًا وأُلفة. أما حين يكون الحديث في الأمور العلمية فتختفي الابتسامة، وتظهر بوضوح علامات التركيز التامّ، واستحضار الفكر والحواس والمشاعر، كما تبدو الجدّيّة في أقصى حدودها، ويبدو الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات مستوفًى إلى أبعد مدًى.

حين تُذكر دمشقُ يتلهَّف قلبُها إلى الكلمات، ويظهر في وجهها انبساط،

وتجري فيه حُمرة شفافة، يعكسان ما يجري في أعماقها من تفاعلات بين الحب والذكريات، وبين القلب والأرض، وبين الإحساس المرهف ورائحة الورد، وبين لذة الانتماء وحنان الطبيعة.

إنها تنظر إلى دمشق على أنها قطعة من السماء، محفوفة بالقداسة، فكل شيء فيها يستحق أن يُحفَظ وأن تُبنى له تماثيل خالدة في الذاكرة. ولعل حبها العظيم لدمشق وأبنيتها وطبيعتها وأهلها جعل إنسانيتها تعلو وتصفو وتتسامى إلى درجة أنها تودُّ لو يتسع قلبها للعالم كله، لتضع في كل قلب زهرة، وفوق كل شفة ابتسامة، وفي كل صدر قنديلاً يمحو ظلمة الأسى والأحزان، وينشر الأمل والضياء والمواساة.

عرفتها على هذه الصورة فكانت مثالاً للمرأة العالمة، التي لا تَعرف للعطاء حدودًا، ولا للصبر نهاية، ولا يعرفُ التَّعَبُ والملُلُ إلى نفسها سبيلاً، كما كانت مثالاً للمرأة أيضًا على المستوى الاجتماعي والإنساني والخلقي.

وُلدت الدكتورة ليلى الصباغ في دمشق عام ١٩٢٤، وهي البنت الصغرى لأسرتها التي تضم ثلاثة أبناء هم: حياة وفيصل وليلى.

ويشاء القدر أن يُسافر والدها إلى الحجّ، فتخطفه يد الموت في تلك الرحلة، وتفتح ابنته «ليلى» عيونها على الحياة، دون أن تكتحل برؤية والدها، أو يحظى جبينها بقبلة عطف منه، أو لمسة حنان.

وبعد وفاة والدها انتقلت مع أمها وإخوتها للعيش في بيت جدها لأمها «أحمد الأبرش»، فكان هذا الجد، الذي تعلق قلبه بحفيدته الصغيرة، يمنحها كل الحب والرعاية والاهتمام.

أما والدتها فقد أغدقت عليها كلَّ ما يختزنه قلبها من عطف وحنان، وكانت

تنظر إلى طفلتها الصغيرة على أنها محور حياتها، وأُنس وجودها، وأمل مستقبلها.

وفي بيت الجد، حيث ازدحام الأقارب والأبناء والأحفاد، وحصول الأولاد الكبار على عناية مَن حولهم واهتمامهم، كانت «ليلى» الصغيرة تبحث عن مكان راسخ لها في قلب جدها وأخوالها، وعن مكانة تتجاوز بها إخوتها وباقي أحفاد جدها، وتُرضي بها أمَّها التي كانت تترقب في ابنتها الغالية المدلَّلة أن يكون لها شأن في الحياة.

وهكذا اندفعت منذ طفولتها، بكل نشاط وعزيمة وجدّية، لتتعلم وتحفظ كلَّ ما يقع عليه بصرها. وكان لعبارات الإعجاب والتشجيع، التي تسمعها من جدها وأمها، وقعٌ بارز في بناء شخصيتها وجدّيتها، واختيارها طريقَ العلم بكل إصرار، وإحساسها بالنشوة والظفر على باقي الأولاد في محيطها الأُسَريّ.

ولكن لم يكن للموت الذي اختطف والدها قبل أن تراه متَّسعٌ لإمهال جدها وقتًا طويلًا، فقد تُوفِّي أيضًا، وحفيدته «ليلى» في العاشرة من عمرها، فكان لوفاته حزن عميق في نفسها، وأثر كبير لا يُنسى.

وفي هذه الأثناء كانت أختها الكبرى «حياة» قد تزوجت وانتقلت إلى بيت زوجها، أما «فيصل» و«ليلى» وأمهما فقد انتقلوا بعد وفاة الجد إلى العيش في بيتهم المستقلّ.

وفي البيت الجديد أعاد أفراد الأسرة ترتيب أمورهم، بحسب الظروف الجديدة، وتابعوا حياتهم التي ارتسمت بداياتها في بيت الجد، فانطلق فيصل وليلى بتشجيع أمهما في طلب العلم، وكان على الأم أن تتحمّل وحدها الأعمال المنزلية، وأن تُهيِّئ لولديها جوَّ الدراسة، وأسباب الراحة.

ولعل في هذه المحطة ما يُفسِّر لنا الجدية والحزم في شخصية الدكتورة

الصباغ. فمن المعلوم أن الأسرة التي تفتقد الأب، وتقوم الأم بدوره، يبحث فيها الأبناء الذكور مبكِّرًا عن تحقيق ذواتهم في أسرتهم ومحيطهم، وغالبًا ما يتصرفون تصرُّف مَن لا يخشى العقاب والحساب، ولا يقبَلون أن تُفرض على سلوكهم قيود، وأحيانًا يُعطون لأنفسهم هامشًا واسعًا من الحقوق، ويفرضون على الأسرة أن تلبي لهم مطالب كثيرة ومرهقة، وهذه المشكلة تزداد وتتضاعف إذا كان الولد الذكر وحيدًا، لأن الأم في هذه الحالة يُضاف إلى تعبها وإرهاقها خوف دائم على سلامة ابنها، وحرص كبير على بقائه قريبًا منها. والأم التي لا تمتلك شخصية الأب وقوته، وقدرته على فرض السلوك المناسب، تلجأ عادة إلى المسايرة والمكافأة والاستعطاف والدعاء والرجاء والبكاء كي تَضمن بقاء ولدها في الطريق الصحيح الذي ترجوه له.

أما البنتُ فتتَّجِهُ عادةً إلى التخفيف عن والدتها، بألا تكون سببًا في ضيقها ومعاناتها، وهي ترى أخاها أو إخوتَها الذكور قد استنفدوا طاقةَ الأمِّ وصبرَها، فتلتزم البنت سلوكًا قويمًا متميِّزًا بوضوح عن سلوك أخيها، وتميل إلى الجدية في القول والفعل، والعفة وحسن الخلق، وتندفع في طريق العلم أو العمل، وتبتعد عن كل ما يُثير حزن والدتها أو يسبِّب لها القلق والمعاناة.

وبمتابعة منقطعة النظير من الأم تابعت الدكتورة الصباغ مراحل التعليم المدرسي، وحصلت على الشهادة الثانوية الأولى في فرع العلوم عام ١٩٤٢، وحصلت على الثانوية الثانية في فرع الفلسفة عام ١٩٤٣.

وبعد حصولها على الشهادة الثانوية تقدَّمت إلى امتحان الدراسة في جامعة الملك فؤاد (جامعة القاهرة حاليًّا)، ونجحت فيه بتفوق، وأصبحت تتطلع إلى القاهرة، وهي ترى حياتها العلمية ترتسم هناك في جامعتها ومكتباتها.

وهنا واجهتها مشكلة لم تكن في الحسبان، إذ كان عليها أن تسافر إلى القاهرة لمتابعة دراستها الجامعية، وهذا الأمر جعلها تتعرض لانتقادات كثيرة في وسطها العائلي والاجتماعي، الذي لم يكن ليتقبّل فكرة أن تذهب فتاة في الثامنة عشرة من عمرها إلى دولة أخرى، وأن تُقيم وحدها هناك في الغربة، بعيدًا عن أهلها وأقاربها.

كان عليها في هذه المرحلة القصيرة أن تختار بين الانصياع لأعراف العائلة والمجتمع، والبقاء بعيدًا عن دنيا العلم وآفاقه، وبين السفر والالتحاق بالجامعة، مع ما يحتاجه هذا الخيار من مواجهة وتحدٍّ.

فاختارت طريق العلم ووقفت بكل عزيمتها وقوتها، مدافعة عن خيارها، متحدِّيةً أعراف المجتمع الظالمة، وسافرت بتشجيع من والدتها، التي كانت تنظر إلى الحياة بحكمة، وترى أن رسالتها في الحياة هي تعليم فيصل وليلى، وبلوغهما أعلى مراتب العلم.

وفي هذه المحطة أيضًا ما يُفسِّر لنا جانب الجدية والحزم في شخصية الدكتورة الصباغ، ففي هذه المرحلة التي تحدَّت فيها أعراف مجتمعها، أصبحت تُفرِّق بين مستويَين من الأعراف والتقاليد: الأول يتعلق بصون الأخلاق والشرف والعفة والكرامة والفضيلة، وينبع من الدين والفطرة الإنسانية ومبادئ الخلق القويم، وهذا المستوى مقدَّس، ويجب على كل إنسان أن يتمسَّك به، وأن يُدافع عنه، لأن الإنسان إذا فقدَه أصبح وجودُه بلا معنى، وأصبحت شخصيته شبحًا خاويًا بلا قيمة.

والمستوى الثاني من الأعراف والتقاليد هو مجموعة من القيود الظالمة فرضها المجتمع على المرأة نزولاً عند إرادة الرجل ورغبته، وبتأثيرٍ من سطوته

وقوته، وهذه القيود تراكمَت على مر العصور، وكانت سببًا في معاناة المرأة، وحرمانها من الحقوق، وإبعادها عن ساحة الحياة الفاعلة.

والدكتورة الصباغ كانت تتمسَّك بالمستوى الأول وتعتز به، أما المستوى الثاني فكانت تمقته، وتدعو إلى نبذه، وتخليص المجتمع منه. وهي بهذه القناعة رسمَت سيرة حياتها، بحيث ألزمت نفسها أن تكون نموذجًا للمرأة التي يكون التزامها بالفضيلة نابعًا من ذاتها وأعماقها، وليس بتأثير رقابة المجتمع. ولذلك اتَّصفت بالجدية التي تعمقت في شخصيتها من محاربتها للتقاليد الظالمة، وحرصها الدائم على ألا يُوجَّه إليها انتقاد مهما كان صغيرًا.

وقد انعكست جديتها في الحياة، وحبها الكبير للعلم، في رسم صورة متوقَّعة لحياتها، إذ اختارت العزوف عن الزواج، لتتفرغ للعلم والتدريس، ولتبقى بجانب أمِّها، تمدُّها بالأنس والحب، كما كانت الأم تقف دائمًا إلى جانب ابنتها، وفي كل لحظة، وتمنحها العطف والرحمة والتشجيع.

وأخيرًا سافرَت إلى القاهرة، منطلقةً من جدِّيّتها المعهودة، وتعطّشها للعلم والمعرفة، فتعرَّفت بالنهضة الفكرية والتنظيمية في مصر، واطَّلعت على أنشطة الحركة النسائية، وحصلت على الإجازة (الليسانس) في التاريخ بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٧.

وفي عام (١٩٦١) حصلت على الماجستير من جامعة القاهرة في تاريخ العرب الحديث بمرتبة الشرف الأولى. وكان عنوان الرسالة «**الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها**».

وفي عام (١٩٦٦) حصلت على الدكتوراه من جامعة القاهرة أيضًا في تاريخ العرب الحديث بمرتبة الشرف الأولى. وعنوان الرسالة «**الجاليات**

الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر».

بدأت مسيرتها العطائية بالتدريس بعد حصولها على الإجازة، فعملت مدرِّسة لمادة التاريخ في المدارس الثانوية ودور المعلمات بدمشق، بين عامي (١٩٤٧- ١٩٥٤).

وفي هذه المرحلة أثبتت جدارة في التدريس، وقدرة كبيرة على تفهُّم حاجات الطالبات، وميولهن السلوكية والفكرية، فكانت مُدرِّسةً ناجحةً، ومُربِّيةً فاضلة، أحبَّتها طالباتها، وكان لكلامها معهنّ وتوجيهاتها وقعٌ عظيم في النفوس، وتأثير كبير في بناء الشخصية، وكان لها فضل لا يُنسى في حمل الطالبات على اختيار طريق العلم والتفوُّق فيه، وزرع العفة وحبّ الفضيلة في قلوبهنّ.

ثم عملت مديرة لثانويتي البنات الأولى والثانية بين عامي (١٩٥٤ و١٩٦٣). وفي هذه المرحلة تجلَّى عطاؤُها في أسمى صوره، وأغزر ينابيعه، إذ أدخلتْ في أسلوب الإدارة كلَّ معارفها في التنظيم والانضباط التي استقتْها من مصر، إضافةً إلى المعارفِ والأساليب التي تكوَّنَت لديها من تجاربها الذاتية في التدريس، وخبرتها الاجتماعية العميقة.

فقد كانت على تواصل دائم بأولياء الطالبات، تُطلعهم على سيرة كلِّ طالبة وما يطرأ على نشاطها من تحسُّن أو تراجع، وكانت تتابع باستمرار تفاصيل الحياة الشخصية للطالبات، وتتولى توجيههن إلى الطريق الصحيح والسلوك القويم في الدراسة والحياة الاجتماعية والعلاقات داخل المدرسة ومع أفراد الأسرة والأقارب، وتحاول أن تجد الحلول لكل المشكلات التي تعاني منها الطالبات في المدرسة والبيت والحيّ.

وأدخلت الكثير من وسائل التعليم والترفيه كالآلات الموسيقية، والأدوات

الرياضية، والكتب الضرورية للمطالعة، وكانت تُقيم في المدرسة الكثيرَ من الأنشطة العلمية والثقافية، مع الاهتمام بالرحلات المدرسية التي كانت تؤدِّي غرضًا ترفيهيًّا وتعليميًّا في الوقت ذاته، بزيارة البيئات المختلفة في سورية، والأماكن التاريخية والأثريّة، وكانت بعض الرحلات تتجاوز حدود سورية إلى أوربة.

لقد بذلت في إدارة المدرسة جهدًا كبيرًا، آتى ثمارًا عظيمةً، إذ نالت ثقةً مطلقةً من الأهالي، وحبًّا كبيرًا من الطالبات اللواتي كُنَّ يُعبِّرن عن هذا الحبّ برسائل مودّةٍ وامتنان، كانت قُبيل وفاتها ما تزال تحتفظ بالكثير منها. وكانت تنظر إلى هذه المرحلة بالفخر والاعتزاز، وكنتُ ألمح في وجهها وعينيها، عند الحديث عن المدرسة والإدارة، علامات الشوق والحنين إلى حقبة غالية على قلبها، وإلى شخصيات أحبتهنَّ من أعماقها.

وعُيِّنَت بين عامي (١٩٦٣ و١٩٦٦) مفتِّشةً أولى للتاريخ والجغرافية في وزارة التربية السورية. فكانت في هذه المرحلة تتجول بين المدارس ودور المعلمين، وتزوِّد المُدرِّسين بعصارة فكرها ورحيق تجاربها، وهي تُملي النصائح والتوجيهات بإخلاص معطَّر بالحب والغيرة على أبنائها الطلاب كما كانت تقول.

وبعد حصولها على الدكتوراه عام (١٩٦٦) سافرت لتدريس التاريخ في جامعة الجزائر، وبقيت فيها سنتين حتى عام (١٩٦٨)، ولم يكن الدافع للسفر ماديًّا، كما يُظَنُّ، بل كان غَيرة على عروبة الجزائر، ولسان أبنائها الذي أخذ يلوك الفرنسية بدل العربية، بتأثير السنين الطويلة من السيطرة الاستعمارية على هذا البلد.

وهناك في الجزائر أسهمت بجديتها المعروفة في حركة التعليم والتعريب، واستطاعت أن تترك أثرًا طيبًا في نفوس طلابها، إلى درجة أنهم تقدَّموا إليها وإلى الجامعة برجاء أن تبقى إلى جانبهم، حين علموا بعزمها على العودة إلى دمشق.

وعملت بين عامي (١٩٦٨ و١٩٧١) في مديرية البحوث في وزارة التربية السورية. فكان لها إسهام بارز في تطوير المناهج، ووضع خطط التعليم، وتطوير الحركة التعليمية في سورية.

وفي عام (١٩٧١) انتقلت للتدريس في قسم التاريخ بجامعة دمشق، ثم رُقِّيَت إلى أستاذة مساعدة عام (١٩٧٦)، وإلى أستاذة عام (١٩٧٨). وفي الجامعة بذلت كل ما تستطيع من جهود في التدريس، ومتابعة الحياة الخاصة للطلاب، وكانت مثالاً متفردًا في العطاء، وفن التدريس، والمحافظة على انضباط الطلبة، وتحفيزهم لطلب العلم.

وفي عام (١٩٨٤) انضمت إلى هيئة الموسوعة العربية، وعملت فيها رئيسة لقسم الحضارة العربية حتى عام (١٩٨٨)، حيث طلبت من رئيس الموسوعة آنذاك الدكتور شاكر الفحام إعفاءَها لتتفرغ للتدريس الجامعي والتأليف.

وفي عام (١٩٩٣) أُحيلت على التقاعد، وأمضت الفصل الدراسي الأول من العام ذاته أستاذة زائرة في جامعة العين بالإمارات العربية المتحدة. وكان هذا العام خاتمة لحياتها التدريسية، وجهادها الطويل في هذا المجال، حيث تفرغت بعد ذلك للتأليف، وإقامة المحاضرات في المجمع، وفي المراكز الثقافية بدمشق.

* * *

البلدان التي زارتها

لم يقتصر عطاء الدكتورة ليلى الصباغ على حدود سورية، بل تجاوز ذلك ليشمل معظم البلدان العربية، وتعدَّى أيضًا البلاد العربية إلى ما وراء المحيطات، وكانت زياراتها إلى خارج سورية بقصد الاطلاع، والحصول على المراجع والمخطوطات، وإلقاء المحاضرات الثقافية والتخصُّصية، والمُشارَكة في المؤتمرات والنَّدوات. وكانت تتقن اللغتين الفرنسية والإنكليزية.

وقد زارت في مسيرة حياتها البلاد التالية:

من البلاد العربية: مصر والأردن ولبنان وفلسطين والعراق والكويت والجزائر والمغرب وتونس والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية.

وفي أوربة: فرنسة وإسبانية وإيطالية والنمسا ويوغسلافية وهنغارية ورومانية وبلغارية واليونان والاتحاد السوفييتي سابقاً[1] وسويسرة.

وفي آسيا: تركية وقبرص.

وفي أمريكة: زارت عددًا من الولايات الأمريكية.

* * *

(١) الاتحاد السوفييتي سابقًا: كان يضمّ خمسَ عشرةَ جمهورية، أكبرها من حيث المساحة روسية الاتحادية، ويمتدُّ على قارتي آسية وأوربة، ويفصلُ بين القسم الآسيوي والأوربي سلسلة جبال الأُورال. والاتحاد السوفييتي يُعدُّ من أوربة لوقوع عاصمته موسكو في القسم الأوربي.

ليلى الصباغ
في مجمع اللغة العربية

بدأت الرحلة المجمعية للدكتورة الصباغ بانتخابها عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٩٨.

ثم صدر بتعيينها المرسوم الجمهوري ذو الرقم (١٥٤) بتاريخ ١٠/ ٨/ ٢٠٠٠.

وقد احتفل المجمع (مساء الأربعاء ٢١/ ٢/ ٢٠٠١) باستقبال الدكتورة ليلى الصباغ عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية، في جلسة علنية، حضرها نُخبة من العلماء والأدباء والطلاب.

بدأ الحفل بكلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، رئيس المجمع، رحَّب فيها بالحضور، وهنَّأ الزميلة الصباغ بانضمامها إلى المجمع، متمنِّيًا لها مسيرة طيبة حافلة بالعطاء.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان، عضو المجمع، كلمة الترحيب بالزميلة الجديدة، فتحدَّث عن سيرتها، ومكانتها العلمية، وجهودها في خدمة العلم.

ثم ألقت الدكتورة ليلى الصباغ كلمتَها، التي تحدَّثت فيها عن سلفها الراحل الدكتور حسني سبح، عضو المجمع ورئيسه السابق.

وقد نُشرت الكلمات التي أُلقيت في حفل الاستقبال في الجزء الثاني من المجلد السادس والسبعين من مجمع اللغة العربية بدمشق.

وباستقبال الدكتورة الصباغ تكون أوَّلَ امرأة تدخلُ مجمع اللغة العربية منذ تأسيسه عام ١٩١٩.

وتجلَّى النشاط العلمي للدكتورة الصباغ في المجمع بحضورها اجتماعات مجلسه، وإسهامها في تطوير العمل المجمعي، وحضورها للمحاضرات الثقافية التي يقيمها المجمع، وإلقائها عددًا من المحاضرات الثقافية فيه، وانضمامها إلى عدة لجان علمية أهمها: لجنة المجلة والمطبوعات، ولجنة النشاط الثقافي، ولجنة المكتبة، ولجنة المخطوطات وإحياء التراث.

وقد استمر عملها في هذه اللجان إلى ما قبل وفاتها بقليل، ولم تتغيب عن المجمع إلا بضعة أشهر قبل وفاتها في عام ٢٠١٣.

* * *

وفاتـها

بعد هذه الرحلة العلمية الحافلة بالعطاء، توقف المسير في المحطة الأخيرة، التي لا بد أن يقف بها كل حيّ، إنها المحطة التي يُودِّع فيها الإنسان أحبته وأصدقاءه ودنياه، وينطلق إلى العالم الآخر، تاركًا خلفه شعاعًا من الذكريات، ونفحاتٍ طيبةً من أعمال الخير، وربما غَرفةً من كنوز العلم، كما هو شأن العلماء.

لقد عاشت الدكتورة الصباغ تسعةَ عقود، أمضتها في العلم والعمل والاجتهاد، وحين طُوِيَت صفحة العمر، ونفد الوقود في سراج الأجل، لبَّت نداء ربها في يوم الأربعاء (٢٦ربيع الأول ١٤٣٤هـ – الموافق لِـ ٦ شباط ٢٠١٣م).

وتخليدًا لذكراها العطرة أقام مجمع اللغة العربية بدمشق حفل تأبين للفقيدة في يوم الأربعاء (١ رمضان ١٤٣٤هـ – الموافق لِـ ١٠ تموز ٢٠١٣م).

حضر الحفل السادةُ أعضاء مجمع اللغة العربية، وعدد كبير من الشخصيات العلمية والأدبية وأصدقاء الفقيدة وأقاربها، كما حضر ممثلون عن الجهات الرسمية التي عملت فيها كجامعة دمشق والموسوعة العربية.

افتُتح الحفل بكلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع، تحدَّثَ فيها عن المحطات الهامة في حياة الفقيدة، وجهودها في التأليف والتحقيق والتدريس وخدمة العلم والثقافة. ثم أُلقيت في الحفل الكلمات التالية:

١ – كلمة جامعة دمشق ألقاها الأستاذ الدكتور خالد الحلبوني.

٢ – كلمة الموسوعة العربية ألقاها الأستاذ الدكتور محمد وليد الجلاد.

٣- كلمة أصدقاء الفقيدة ألقاها الأستاذ الدكتور أحمد طربين.

٤- كلمة تلامذة الفقيدة ألقتها الأستاذة الدكتورة نجاح محمد.

٥- كلمة آل الفقيدة ألقاها ابن شقيقها المهندس عامر الصباغ.

وقد أثنى أصحاب الكلمات على السيرة العطرة للفقيدة، وتفانيها في خدمة العلم والمجتمع والحضارة الإنسانية، وأثرها الطيب الذي غرسته في نفوس طلابها وزملائها وأصدقائها وأقاربها.

ويُشار إلى أن الكلمات التي أُلقيت في حفل التأبين نشرها مجمع اللغة العربية في كُتيِّب صغير عام ٢٠١٤.

* * *

الإنتاج العلمي
للدكتورة ليلى الصباغ

تركت الدكتورة الصباغ إنتاجًا علميًّا غزيرًا، معظمُه في مجال علم التاريخ، باعتباره التخصُّصَ الدقيق لها، وما تبقَّى يتوزَّع في مجال الأدب والعلوم الإنسانية عامة. ويتصف هذا الإنتاج على ضخامته وتنوع مجالاته، بالموضوعية والدقة العلمية، والرجوع إلى المصادر المعتمدة لكل علم تكتب فيه، وكثرة التمحيص والتدقيق والتحقُّق من صدق الروايات والمعلومات والأخبار.

ويمكن تصنيف إنتاجها العلمي على النحو الآتي:

١- المؤلَّفات التاريخية.
٢- المؤلَّفات الثقافية.
٣- تحقيق التراث والتعريف به.
٤- البحوث والمقالات المنشورة في المجلات العلمية والثقافية.
٥- المؤلَّفات والبحوث غير المنشورة.
٦- المحاضرات الثقافية.

وفيما يلي عرض موجز لإنتاجها العلمي، علمًا أن الفصل الثاني من هذا الكتاب قد خُصِّص للحديث عن مؤلَّفاتها ومضمونها:

أولاً- في مجال التأليف:

تركت الدكتورة ليلى الصباغ في مجال التأليف عشرة كتب منشورة يبلغ مجموع صفحاتها نحوَ خمسة آلاف صفحة، وهي:

- **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني**. دمشق ١٩٧٣.
- **المرأة في التاريخ العربي (في تاريخ العرب قبل الإسلام)**. دمشق ١٩٧٥.
- **دراسة في منهجية البحث التاريخي**. مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٩.
- **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**. مطبوعات جامعة دمشق١٩٨٠.
- **معالم تاريخ أوربة في العصر الحديث**. مطبوعات جامعة دمشق١٩٨٠.
- **من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: المؤرخ المُحِبّي وكتابه خلاصة الأثر**. الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق ١٩٨٦.
- **الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر**. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩.
- **نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع**. دمشق عام ١٩٩٥.
- **من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي**. دمشق عام ١٩٩٦.
- **فلسطين في مذكّرات الفارس دارفيو**. بيروت ١٩٩٦.

ثانياً- في مجال التحقيق:

- كتاب «**المنح الرحمانية في الدولة العثمانية**» للمؤرخ المصري محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، دار البشائر، دمشق ١٩٩٥.

وهذا الكتاب يُعبِّر عن تجربة رائدة ، وإتقان منقطع النظير، في هذا المجال.

ثالثاً- البحوث والمقالات المنشورة في المجلات العلمية والثقافية:

للدكتورة ليلى الصباغ عشرات البحوث المنشورة في مجلات عربية وأجنبية، بعضها جمعتْه في مؤلَّفاتها، والكثير منها موزَّعٌ في صفحات تلك المجلات. وفيما يلي قائمة بهذه البحوث مرتبة بحسب سنة النشر:

- **الدور التاريخي للجامعة**. مجلة المجاهد الثقافي، الجزائر١٩٦٨.
- **عبد الملك بن مروان أصالة عربية إسلامية**. مجلة «الأصالة»، السنة الرابعة، الجزائر ١٩٧٥.
- **الجاليات الأوربية في العالم العربي في العصر العثماني**. مجلة «الأصالة»، السنة الرابعة، الجزائر ١٩٧٥.
- **ثورة مسلمي غرناطة عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م والدولة العثمانية**. مجموعة «ملتقى الفكر الإسلامي»، تلمسان ١٩٧٥، ومجلة «الأصالة»، الجزائر ١٩٧٥.
- **عنّابة بين اسمها وموقعها وعلاقتها مع العالم المتوسطي**. مجلة «الأصالة»، السنة الخامسة، الجزائر ١٩٧٦.
- **الجديد في «العسكر الجديد»**. مجلة «الفكر العسكري»، العددان الثالث والرابع، دمشق ١٩٧٦.
- **الوجود المغربي في المشرق العربي في العصر الحديث**. «المجلة التاريخية المغربية»، تونس ١٩٧٧.
- **ساطع الحُصري المؤرّخ**. مجلة «المعلم العربي»، العددان الثاني والثالث، دمشق ١٩٧٧.
- **الوثائق الإيطالية والإسبانية في تاريخ العرب في القرن العاشر الهجري/**

السادس عشر الميلادي. ندوة الدراسات العليا في جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٧.

- **ست سنوات من كفاح ساطع الحصري في العراق**. في كتاب «ساطع الحصري في كفاحه القومي والتربوي»، المجلس الأعلى للعلوم، دمشق ١٩٧٧.

- **إفريقية الشرقية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**. في مجموعة «ملتقى الفكر الإسلامي» في تامنراسيت، الجزائر ١٩٧٩.

- **وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي عن الصناعة النسيجية والنساج**، لمحمد بن طولون الدمشقي. في كتاب المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. دمشق ١٩٧٩.

- **بين جامع الزيتونة في تونس وجامع بني أمية في دمشق**. «ملتقى جامع الزيتونة»، تونس ١٩٧٩.

- **فلسطين في مذكّرات الفارس دارفيو**، بحث قُدِّم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٠.

- **نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الأولى من الحكم العثماني**، مجلة «أوراق»، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد ١٩٨٠.

- **دين الغرباء (الموريسكوس)**. بحث قدم بالفرنسية إلى ندوة الموريسكوس وعصرهم في مونبليه، فرنسة ١٩٨١. نشر في كتاب:

Les Morisques et leur temps. Paris 1993 pp: 45-56

- **الحضارة العربية الإسلامية والتاريخ**. نُشر في كتاب «وقائع ومحاضرات

المؤتمر العالمي للحضارة العربية الإسلامية»، دمشق ١٩٨٣.

- **الفعاليات الاقتصادية في فلسطين في أواخر العقد السابع وحتى منتصف الثامن من القرن الحادي عشر الهجري/ أواخر العقد السادس وحتى منتصف السابع من القرن السابع عشر الميلادي. من خلال مذكَّرات الفارس دارفيو.** نُشر في كتاب «الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني»، تونس ١٩٨٤.
- **ملاحظات حول دراسة الاقتصاد العربي في العصر العثماني.** المجلة التاريخية المغربية، ١٩٨٥.
- **صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة/ النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد.** نُشر في كتاب «الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني»، زغوان ١٩٨٨.
- **الغزو البرتغالي للبلاد العربية وموقف الدولة العثمانية في القرن السادس عشر.** نُشر في كتاب «ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي»، العين ١٩٩١.
- **التجار الدمشقيون الأخيار بين العلم والإعمار.** العدد الثاني من النشرة الاقتصادية لغرفة تجارة دمشق ١٩٩٢.
- **بين ماضٍ وحاضر** في مجلة «**آفاق الثقافة والتراث**». العدد الأول، دمشق ١٩٩٣.
- **علم الوثائق.** مجلة «آفاق الثقافة والتراث»، العدد الثاني، دمشق ١٩٩٣.
- **الأدب العربي في المرحلة ما بعد التقليدية (من القرن السادس إلى الثاني**

عشر الهجري). نشر في الكتاب الثاني، من المجلد الخامس، من كتاب (الثقافة والتعلم في الإسلام)، الذي أشرفت عليه منظمة اليونسكو، عام ١٩٩٠ وترجم إلى الإنكليزية في كتاب:

Volume V. Work on the Various Aspects of Islamic Culture

- **جولة في موسوعة عربية إسلامية من العصر العثماني (لطاشكبري زادة)**. بحث أُلقي في كلية الإلهيات في جامعة مرمرة بتركية عام ١٩٩٧.
- **عدة بحوث في الموسوعة الفلسطينية**.
- **عدة بحوث في الموسوعة العربية التي تصدرها الجمهورية العربية السورية**.

رابعاً- الإنتاج العلمي غير المنشور:

رحلت الدكتورة الصباغ، وكان بين يديها كثير من البحوث والمقالات، التي لم تُنشر بعد، وفيما يلي قائمة بتلك البحوث مرتبة ترتيبًا ألفبائيًّا:

- **أحاديث أُلقيت في الإذاعة السورية** في المدة (١٩٥٠-١٩٧١)، متنوعة الموضوعات.
- **تاريخ الأتراك العثمانيين**. تعريب لكتاب المؤرخ الإنكليزي «كريزي Creasy» "The ottoman Turks".
- **الدولة العثمانية والنفوذ البرتغالي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**.
- **ست سنوات من كفاح ساطع الحصري في العراق (١٩٢١-١٩٢٧م)**. بحث طويل بمناسبة مرور مئة عام هجريّة على ميلاد المربي العربي الكبير ساطع الحصري، واحتفال المجلس الأعلى للعلوم بذلك.

نُشر مقتطفٌ منه في الكُتيِّب الذي أصدره «المجلس الأعلى

للعلـوم» بعنـوان: «**سـاطع الحـصري في كفاحـه القـومي والتربـوي**»، في العدد الثاني عشر من مجلة «الفكر العربي» عام ١٩٧٧.

- **الطرائق الخاصة لتدريس التاريخ**. مـذكرات لطـلاب الـدبلوم العـام في كلية التربية.
- **العلاقات الدولية**: معالم العوامل المؤثرة في العلاقات الدوليـة وتطورهـا في العصور الحديثة. مذكرات لشعبة الصحافة، الإجـازة العامـة، الـسنة الثالثة (١٩٧٢-١٩٧٣).
- **عـصر الثـورات في أوربـا (تـاريخ العـالم المعـاصر) (١٧٧٠-١٨٧٠)**. مذكرات لطلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة دمشق (١٩٧١-١٩٧٢).
- **عصر الرسول والخلفاء الراشدين، والعصر الأموي**. مـذكرات لطـلاب السنة الثانية من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق.
- **في «فلـسفة التـاريخ»**. مـذكرات أُلقيـت عـلى طـلاب دبلـوم الدراسـات العليا في قسم التاريخ بجامعة دمشق.
- **مسرد تاريخ الحضارة العربية الإسـلامية (المـداخل)**. وهـو مخطـوط عـلى بطاقات في أرشيف الموسوعة العربية بدمشق.
- **معالم الحياة الفكرية في الولايات العربية في العصر العثماني**.
- **معالم العصر العبـاسي**. مـذكرات لطـلاب الـسنة الثالثـة مـن قـسم اللغـة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق.
- **معالم عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي**. مذكرات لطلاب السنة الثانيـة من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق (١٩٧٤-١٩٧٥).

- **ملامح التاريخ الإسلامي**. مذكرات أُعدت للسنة الثانية من قسم الآثار في كلية الآداب بجامعة دمشق (١٩٧٢-١٩٧٣م).
- **موجز تاريخ أوربة في الحقبة المعاصرة (مرحلة السِّلْم المسلَّح والتوسع الاستعماري الأوربي وما رافقها من تطور حضاري)**. مذكرات أُعِدَّت لطلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة دمشق.
- **موجز لتاريخ العالم على شكل فقرات وعناوين رئيسة منذ بداياته حتى عام ١٩٩٠**. أُعد لمركز جمعة الماجد بدبي في الإمارات العربية المتحدة.

خامساً- النشاط العلمي والمشاركة في المؤتمرات:

شاركت الدكتورة ليلى الصباغ في المؤتمرات والملتقيات الآتية:

- مؤتمر (سيقر) في فرنسة للمدارس المشتركة. (عام ١٩٦٣).
- ملتقى الفكر الإسلامي في بجاية بالجزائر (عام ١٩٧٤).
- ملتقى الفكر الإسلامي في تلمسان بالجزائر (عام ١٩٧٥).
- ندوة الدراسات العليا في جامعة عين شمس بالقاهرة (عام ١٩٧٧).
- المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام بدمشق (عام ١٩٧٨).
- ملتقى الفكر الإسلامي في تامنراسيت بالجزائر (عام ١٩٧٩).
- ملتقى جامع الزيتونة في تونس (عام ١٩٧٩).
- مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية في دمشق (عام ١٩٨١).
- ندوة الموريسكيون وعصرُهم في مونبليه بفرنسة (عام ١٩٨١).
- المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والعهد العثماني في تونس (عام ١٩٨٢).
- المؤتمر العالمي الأول للَّجنة العليا للدراسات العثمانية في تونس (عام ١٩٨٤).

- المؤتمر العالمي الثاني للَّجنة العليا للدراسات العثمانية في تونس (عام ١٩٨٦).
- نـدوة مكانـة الخلـيج العـربي في التـاريخ الإسـلامي في مدينـة العـين بالإمارات العربية المتحدة (عام ١٩٩٠).
- ندوة توزيع الجوائز على المتفوقين بالبحث، في مركـز الأبحـاث للتـاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إستانبول، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي (عام ١٩٩٧). وتسلمت الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ من ذلك المركز الجائزة التقديرية «التميُّز في البحث» "Excellence in Research"

يُضاف إلى مـا سـبق إلقاؤهـا عـشرات المحـاضرات الثقافيـة والتخصّـصية في المراكز الثقافية ومراكز الأبحاث العلمية في البلاد العربية والأجنبية، نُـشر بعـضُها في مؤلَّفاتها، وبعضها ما يزال حَبيسًا بين أكداس الأوراق في مكتبتها الخاصة.

* * *

بحوث الدكتورة ليلى الصباغ
المنشورة في مجلة المجمع

نشرت الدكتورة ليلى الصباغ في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ثلاثة بحوث وهي:

١ - السيرة الذاتية والعلمية لعضو المجمع الراحل «الدكتور حسني سبح» (١٩٠٠ - ١٩٨٦)[(١)].

وهو بحث غني بالتفاصيل الدقيقة، والمعلومات الوافية، ألقته الدكتورة الصباغ في حفل استقبالها عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٢١/ ٢/ ٢٠٠١، إذ جرت العادة أن يُلقي العضو الجديد كلمة يُترجم فيها لسلفه الراحل، ويذكر رحلته العلمية والمجمعية.

وقد عرضت في كلمتها، عن الطبيب الراحل حسني سبح، أهمَّ المحطات التي مرّ بها في حياته، وكان لها تأثير واضح في تكوينه العلمي والثقافي، على عادتها في كتابة السِّيَر والتراجم، إذ تميل إلى عرض الحقائق والمعلومات بأسلوب أدبي متميِّز، يجعل القارئَ يشعر بالمتعة والجمال الفني، مع استيعابه للتفاصيل التاريخية الدقيقة.

ويُشار إلى أن الدكتور حسني سبح كان متخصِّصًا بالطب، وانتُخب عضوًا في مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦، ثم انتُخب رئيسًا له عام ١٩٦٨، وأُعيد انتخابه

(١) نُشر في الجزء (٢) من المجلد (٧٦) من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لعام ٢٠٠١ ص٤٠٧.

رئيسًا للمجمع عدة مرات، فظل في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٨٦.

وله سيرة حافلة بالعطاء والإنجازات في مجال التأليف والتعريب والتدريس الجامعي والمعالجة الطبية، وتأسيس الجمعيات الخيرية، وبناء المشافي، وإليه يعود الفضل في إنشاء مشفى المواساة بدمشق، كما شغل أيضًا عضوية كثير من المؤسسات العلمية والثقافية العربية والدولية، ونال عددًا من أوسمة التقدير.

٢- بحث بعنوان «**المجمع العلمي العربي بدمشق والمرأة**»[(١)].

تحدَّثت في هذا البحث عن فكرة تأسيس المجامع العربية، والمهامّ التي نهضت بها تلك المجامع، ولا سيما الاهتمام بنشر اللغة العربية وتطويرها، وتمكينها من مواكبة التقدم العلمي والحضاري.

ثم عرضت العلاقة بين المجامع والمرأة، بصورة عامة، فأشارت إلى وجود بُعد بين المرأة والمجامع، إلى درجة أن «الأكاديمية الفرنسية»، التي أُسِّست عام ١٦٣٥م، والتي سارت المجامع العربية على نهجها، لم تضمَّ بين أعضائها امرأة حتى عام ١٩٨٠، حين انتُخِبَت الأديبة «مرغريت يورسينار» (١٩٠٣-١٩٨٧)، فكانت أول امرأة تدخل الأكاديمية الفرنسية.

ثم انتقلت إلى الحديث عن مجمع دمشق، ونشاطاته العلمية، ودوره في تثقيف المرأة، وإتاحة الفرصة لها لإلقاء المحاضرات وحضورها. فذكرت عددًا كبيرًا من النساء الأديبات ألقَينَ محاضراتٍ تحت إشراف المجمع ورعايته، إلا أن المجمع، الذي أُسِّس عام ١٩١٩، لم يُتح للمرأة الانضمامُ إلى عضويته حتى عام ٢٠٠١، عام استقبال الدكتورة ليلى الصباغ عضوًا عاملاً فيه.

---

(١) نُشر في الجزء (٢) من المجلد (٧٨) من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لعام ٢٠٠٣ ص٢٥١.

ويحوي البحث معلومات هامة عن أسماء النساء اللواتي عَمِلنَ تحت سقف المجمع في التحقيق والتأليف والنشر في المجلة، وما قدَّمنه من جهود علمية في خدمة اللغة والتراث.

٣- بحث بعنوان «**المدرسة الفارسية في دمشق**»[١].

تحدَّثت في هذا البحث عن المدارس ودُور التعليم في دمشق في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، من حيث أماكن وجودها، وتاريخ إنشائها، والأوقاف المخصَّصة لها، وأثرها في استقطاب الطلبة، وتخريج العلماء، وما تعرَّضَت له تلك الصروحُ العلمية من سلب ونهب وإهمال، ومن تعهُّدٍ وعناية وترميم.

والمدرسة الفارسية تقع حاليًّا في منطقة البزورية بدمشق، إلى الجنوب من الجامع الأموي، وسُمِّيت بالفارسية نسبة إلى مؤسِّسها الأمير سيف الدين فارس التيميّ (ت ٨١٠هـ)، الذي بنى المدرسة وأوقَف عليها أوقافًا كثيرة، منها قرية «صحنايا» التي اشتراها لهذا الغرض. وقد استمرَّ النشاط العلمي لهذه المدرسة حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ثم انطفأت شعلتها بسبب استيلاء بعض الطامعين على أوقافها، وظهور مدارس جديدة منافسة لها كالمدرسة السليمانية التي أنشأها سليمان باشا العظم سنة ١١٥٠هـ، وغيرها من المدارس.

* * *

(١) نُشر على قسمين في الجزأين (١و ٢) من المجلد (٨٣) من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لعام ٢٠٠٨ ص٣٥ و٢٧٧.

منهجها في التأليف

للتأليف مناهج معروفة لدى الباحثين. ولعل المنهج الشائع في الدراسات اللغوية والأدبية والعلوم الإنسانية هو المنهج الوصفي، الذي يقوم على الاستقراء والتحليل والاستنتاج.

فالاستقراء يعني أن يقوم الباحث بالتحرِّي والتنقيب عن المادة العلمية في المصادر والمراجع، وأن يقوم بجمع تلك المادة وتنظيمها وترتيبها، ووضعها بين يديه عند البدء بصوغ البحث وتأليفه.

والتحليل هو مجموعة العمليات الذهنية، والمحاكمات المنطقية، التي يعمد إليها الباحث في نقد المادة العلمية المجموعة وتصنيفها، والوصول إلى الفكرة الصحيحة، واستبعاد الفكرة الخاطئة.

أما الاستنتاج فهو الآلية التي يتمكن بها الباحث من الوصول إلى النتائج المرجوّة من البحث، بعد الاحتكام إلى مقدِّمات منطقية تستلزم عادة نتائج محدَّدة.

والآليات السابقة تُمكِّن الباحث من الوصول إلى المعلومات الصحيحة، واستنتاج الفكر الجديدة. أما الصوغ وإخراج البحث في صورته النهائية فيحتاج إلى التمكُّن من اللغة، وتوظيف تقنياتها البلاغية والدلالية في الأسلوب، وحُسن التمهيد للأفكار، كما يحتاج إلى مهارة في تحديد الأبواب والفصول، واختيار العناوين.

والبحث المميَّز هو الذي يقوم على العناصر السابقة، ويستوفيها في صورتها

الكمالية. فالاستقراء يمكن تقسيمه إلى ناقص وكافٍ وتامّ، ففي الاستقراء الناقص لا يستوفي الباحث كل تفاصيل المادة العلمية، وتكون إحاطته بها ناقصة، وهذا يؤدِّي إلى تحليل مشوَّهٍ، واستنتاج خاطئ، وولادة بحث ليس له قيمة علمية.

والاستقراء الكافي يكون بالاكتفاء مثلاً بمصدر واحد أو عدة مصادر للمعلومات، وبناء التحليل والاستنتاج على ذلك. وهذا النوع من الاستقراء تقوم عليه معظم البحوث، ويؤدي عادة إلى نتائج صحيحة، ولكن لا يُؤمن فيه الخطأ في الاستنتاج، وقد يكتشف الباحث نفسه ذلك فيما بعد، أو يكتشفه باحث آخر.

أما الاستقراء التام ففيه يُحيط الباحث بالمصادر والمراجع كافة، ثم يبنى تحليله واستنتاجه على هذه الإحاطة، وهذا النوع من الاستقراء كفيل بإيصال الباحث إلى النتائج المرجوة. والبحث الذي يعتمد على استقراء تام أو شبه تام يتصف عادة بالنُّضج، ولا يبقى فيه نتائج يمكن أن يكتشفها باحث جديد.

ويُشار إلى أن العناصر التي يقوم عليها البحث لا تؤدِّي دورًا منفصلاً في بلوغ الدقة والإحكام، والوصول إلى النتائج، بل لا بد من إتقانها مجتمعة. فمثلاً لو اعتمد باحث على استقراء تام، لكنه قصَّر في التحليل، أو أخطأ في الاستنتاج، أو لم يكن يُحسن الأسلوب والعرض، فلا شك أن بحثه لن يُوصله إلى النتائج المرجوة، ولن يكون في المستوى المطلوب، أي إن البحث لا يكون متميِّزًا إذا وُجد نقص في أحد العناصر التي يقوم عليها المنهج الوصفي.

لقد أردتُ من هذا التمهيد الموجز أن أُبيِّن المزايا التي يتصف بها منهج الدكتورة ليلى الصباغ في مجال التأليف، فهي تعتمد في مؤلفاتها على المنهج

الوصفي الذي يقوم على الاستقراء والتحليل والاستنتاج، وتلجأ أحيانًا إلى المنهج التاريخي أو التقابلي، ولكن على نطاق ضيِّق جدًّا. ويتصف منهجها بوجه عام بما يلي:

١- سعة المصادر والمراجع، والاستقصاء الدقيق للمادة العلمية، وهذا يعني أن بحوثها تقوم على استقراء شبه تامّ، ويؤدِّي بالضرورة إلى الحصول على نتائج مهمّة وصحيحة.

٢- أسهم إتقانها للغتين الإنكليزية والفرنسية في الاعتماد الواسع على المراجع الأجنبية، وعدم الاكتفاء بالمراجع العربية. وهذا الأمر ساعدها في الإحاطة بالفكرة المدروسة، والاطلاع على ما قيل فيها انطلاقًا من رُؤًى مختلفة، واعتبارات متنوعة، ومواقف متباينة.

٣- اعتمادها في البحث عن المعلومات، إضافة إلى المصادر والمراجع، على الوثائق المحفوظة في المكتبات والمتاحف ودور الآثار والأرشيف، وهذا الأمر ساعدها في الوقوف على حقائق وتفاصيل لا تتوفر في المصادر والمراجع.

٤- الإفادة من العلوم الأخرى في دراسة الأحداث، وتفسير الظواهر التاريخية والاجتماعية، وتفسير الدوافع النفسية والاقتصادية والسياسية وغيرها، التي كانت وراء وجود الأحداث وتطورها.

٥- غنى مؤلَّفاتها بالتحليل المنطقي، والمقارنة بين مصادر المعلومات، ونقد الروايات، للوصول إلى الحقائق، ودفع الأوهام والأخطاء التي وقع بها الباحثون.

٦- الميل إلى التفصيل في الأحداث التاريخية، والسعي وراء الجزئيات الصغيرة التي تتألف منها المادة العلمية.

٧- الموضوعية في معالجة الفكرة ودراستها، والبعد المطلق عن التعصب الشخصي أو القومي، كما سيظهر في حديثها عن دور المرأة في التاريخ العربي قبل الإسلام، ودور العرب عامة في التاريخ العثماني والحديث.

٨- الحرص على وضع فهارس فنية لمؤلَّفاتها تتضمن الأعلام والأحداث والمصطلحات والمناسبات والصناعات والمواد وغير ذلك. وهذا يُسهِّل على الباحث الإفادة من هذه المؤلَّفات.

٩- البساطة في عرض الفكرة وتناولها ومناقشتها، بحيث لا يشعر القارئ بوجود فرق بينه وبين المؤلِّفة في المستوى الثقافي والعلمي.

١٠- المهارة والدقة في التبويب والتقسيم، وتوزيع المادة العلمية على أجزاء الكتاب، وحُسن اختيار العناوين الأساسية والفرعية.

١١- براعة الاستهلال والتمهيد للفكرة، إلى درجة أن القارئ يتشوَّق إلى متابعة القراءة والوقوف على المعلومات والنتائج.

١٢- جمال الأسلوب وخفّته، فالأسلوب الذي تعتمده في مؤلَّفاتها هو الأسلوب الأدبي الممتع، وخاصة في كتابة السِّيَر والتراجم، مع الإشارة إلى أن اعتمادها الأسلوب الأدبي لا يُقلِّلُ من حرصها على الدِّقة العلمية، فهي تقدِّم لقارئها الحقيقة العلمية بأسلوب أدبي ممتع، بحيث لا يُخفي الأسلوب حدودَ الفكرة وتفاصيلها، ولا يكون للفكرة سلطان على الأسلوب، بحيث تُقدَّم في قوالبَ جافّةٍ ليس فيها رونق وسلاسة.

وفيما يلي حديثها عن الأسلوب الذي تعتمده في البحث، وتُطالب الباحثين باعتماده، أسوقُه بلسانها، لأن فيه توضيحًا وتوصيفًا للمزايا العامة لأسلوبها في التأليف، فهي تُطالب الباحث «أن يكتب ببساطة متجنِّبًا الإيهام

والاستطراد، وألا يُطيل من جُمَله حتى تبقى الفِكَر متواصلة، وأن يبتعد عن صيغ الجزم والحتمية والمبالغة، وأن يشرح الحقائق والفِكَر وهو واضع نصب عينيه أن ما يعرفه هو من خلفيّاتٍ للأمور لا يعرفه قارئه، فلا بدّ من تنويره، فهو لا يكتب لنفسه، وإنما ليَنشر ما يكتب ويُدركه القرّاء...

ومهما يكن فإن رصانة العبارة، والبعد عن الإسفاف، واختيار الألفاظ الدقيقة المحدَّدة، والاصطلاحات التاريخية بمضموناتها السليمة، واتّباع العبارة المركَّزة دون تكرار في المرادفات والمعاني، والسعي لربط متين بين الجُمَل والفقرات، هذه كلها المرتكزات الأساسية في أسلوب التعبير التاريخي أيًّا كان القارئ. وإن استعمال التساؤلات، والوصف الحسي الدقيق، وضرب الأمثلة، قد يُضفي على هذا الأسلوب ألوانًا مشوِّقة تجذب القارئ لمتابعته»[1].

* * *

(١) دراسة في منهجية البحث التاريخي ص٣٦٨.

منهجها في التحقيق

للتحقيق غرض عامّ يتمثل في: إخراج الكتاب كما أراد مؤلِّفُه على صورة يفهمها أهل العصر، وله منهج عامٌّ أيضًا يتجلَّى في جَمع المخطوطات، وترميزها، واختيار نسخة الأصل بحسب اعتبارات كثيرة لا مجال لذكرها الآن، والاستعانة بالنسخ المخطوطة والمصادر والمراجع للوصول إلى نسخة صحيحة يستطيع أهل العصر قراءتها وفهمها، مع توثيق الشواهد والآراء من مصادرها، ووضع فهارس فنية تُسهِّل على القارئ الوصول إلى المعلومات المبتغاة ...

ولكن عند النظر في الكتب المحقَّقة نجد تفاوتًا كبيرًا في المناهج، وسبب ذلك أن لكلّ محقِّق رؤيةً خاصة في الوصول إلى غرض التحقيق، ولديه أيضًا استعدادات نفسية وقدرات علمية تجعل عمله يتميَّز من عمل غيره.

ولا يتسع المقام للموازنة بين مناهج المحقِّقين وأساليبهم، وأعني الذين يُعتدُّ بهم في هذا المجال، فهناك فروق كثيرة نجدها في مجالات: الضبط اللغوي، وعلامات الترقيم، والرسم الإملائي، وتحديد بداية الفكرة ونهايتها، وتخريج الآيات والأحاديث والشواهد والآراء والأقوال والأشعار والأمثال.

كما تختلف مناهجهم في إصلاح الأخطاء التي يُصادفونها في المتن المحقَّق، وترميم النقص فيه، ووضع العناوين الأساسية والفرعية.

ولعل الفروق الأساسية بين أعمال المحقِّقين تبدو في الحواشي والفهارس الفنية. فالحواشي يملؤها المحقِّق عادةً بما يعتقد أنه ضروري لتوثيق النص

المحقَّق وشرحه وتوضيحه والتعريف بمضمونه، وهذا الأمر يتطلَّب:

١- عرض الخلافات بين النسخ المعتمدة في التحقيق، والمسوِّغات التي أسهمت في الترجيح بينها واختيار الرّاجح.

٢- التفسير اللغوي للألفاظ الواردة في المتن التي تحتاج إلى تفسير، وشرح معاني العبارات التي يُقدِّر المحقِّق أن القارئ لا يفهم دلالتها بسهولة.

٣- التعريف بالأعلام والأحداث والمصطلحات والكتب والرموز الواردة في المتن.

٤- تخريج الاقتباسات الواردة في المتن كالآيات والأحاديث والأشعار والآراء والأقوال من مصادرها.

٥- تثبيت بعض المعلومات والتفاصيل التي تتصل بموضوع النص المحقَّق، وتُسهم في توضيحه وترسيخه.

والفهارس الفنية تضم عادة: فهارس الآيات والأحاديث والأشعار والأمثال والأعلام والأقوام والأماكن والوقائع والكتب والرسائل، وفهرس مصادر التحقيق ومراجعه، ويأتي أخيرًا فهرس المحتوى أو الفهرس العام. وهناك فهارس فنية إضافية يصنعها المحقِّق بحسب طبيعة الكتاب، كفهارس اللغة، وفهرس الأساليب، وفهارس النحو والبلاغة ...

وهناك فروق واضحة بين مناهج التحقيق فيما يخصّ المقدمة والحواشي والفهارس الفنية والأمور الأخرى، تتدرج من الدِّقة والشمول والإتقان إلى الإهمال والاختصار والتجاهل.

إن منهج الدكتورة ليلى الصباغ، في مجال التحقيق، تبدو معالمه واضحةً في كتاب «المنح الرحمانية في الدولة العثمانية» لابن أبي السرور البكري المتوفى بعد

عام (١٠٧١هـ)، الذي حقَّقته الدكتور الصباغ، وظل شاهدًا على ما يتفرَّد به عملها في هذا المجال، إذ التزمت بالمنهج العام في التحقيق المتمثل في جمع المخطوطات وترميزها واختيار نسخة الأصل، والاستعانة بالمصادر والمراجع، ووضع الفهارس الفنية...

وانطلاقًا من حرصها الشديد على الدقة في العمل، وبلوغ الغاية المرجوّة من التحقيق على أكمل وجه، فقد ألزمت نفسها، إضافة إلى المنهج العام، ببذل جهد كبير يُمكن اعتباره منهجًا خاصًّا، وأسلوبًا متميِّزًا في مجال التحقيق. وتظهر ملامح التميُّز فيما يلي:

١- المقدمة المطولة التي تُمثِّل دراسة مفصَّلة للكتاب المُحقَّق ومضمونه، وحياة مؤلِّفه وإنتاجه العلمي وتوثيق نسبة الكتاب إليه، وأوضاع عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، والظروف التي دفعت المؤلِّف إلى التخصص في مجال التاريخ، والدوافع وراء تأليف الكتاب.

وبفضل هذه الدراسة تكون قد وضعتِ القارئ في عصر المؤلِّف، وأزالت من أمامه عقبات الفارق الزمني بينهما، فيسهل عليه الاطلاع على لغة الكتاب وفهم أسلوب مؤلِّفه.

٢- تحرِّي الدِّقّة والصدق في المعلومات التاريخية، واعتماد منهج المقارنة بين المصادر للوصول إلى الفكرة الصحيحة والمعلومة الدقيقة.

٣- الاعتماد على النقد العلمي للروايات، للوصول إلى الحقيقة.

٤- الوقوف على كل ما يرد في المتن المحقَّق من أعلام وتواريخ ووقائع وبلدان وغير ذلك، وإفراد الحواشي المناسبة للتعريف بها.

٥- تثبيت المعلومات الصحيحة في المتن، مع عرض ما ورد في النسخ

المخطوطة، وفي المصادر والمراجع، في الحواشي.

٦- اعتماد الحواشي الوافية لاستيعاب ما يتصل بالحقائق العلمية من مناقشات وأخذ ورد.

٧- التوسع في استعمال المصادر والمراجع، إلى درجة الإحاطة بكل ما ورد حول المعلومات من آراء وروايات وتحليلات.

٨- الاعتماد على المصادر والمراجع الأجنبية، وعدم الاكتفاء بالمصادر العربية.

٩- وضع فهارس فنية دقيقة وشاملة لكل ما في الكتاب المحقَّق من معلومات.

وبفضل هذه المزايا وغيرها يُمكن القول بأن الدكتورة ليلى الصباغ قد أسهمت في إحياء التراث العربي، وفي رسم منهج علميٍّ في التحقيق، كما ساهمت في تطوير هذا العلم وترسيخ مبادئه.

* * *

تجربتها في النقد الأدبي

حين تناولتُ كتاب «من الأدب النسائي المعاصر» للدكتورة ليلى الصباغ، توقَّعت أني سأقرأ سِيَرًا تاريخية لمجموعة من الأديبات، تفيضُ عادة بالتفاصيل الدقيقة، والتحرّيات المطوَّلة، والتحقيقات المفصَّلة، ونقد الروايات، وتخيَّلت أني سأنظر إلى الأدب بعيون عالمة في مجال التاريخ تغضُّ من قيمة الفنّ والعاطفة أمام سلطان العقل والمنطق والموضوعية.

وإذا بي أفاجَأُ بأدب من الطراز الرفيع، خُطَّ بقلمِ أديبة مبدعة، تنتقي ألفاظها، وتبثُّ في السطور رقّةَ عواطفها، وتستقصي جوانب الفكرة بأسلوب فنيٍّ، يُضاهي أساليب كبار الأدباء.

فالأسلوب الذي صِيغت به تلك السِّيَر أسلوب أدبيّ يجمع بين السرد والتصوير، والواقع والخيال، والحقائق والفنّ، والاستطراد المحبَّب والإيجاز البليغ، والأحكام العقلية والانفعالات العاطفية. كل ذلك بخطوات مدروسة، وخطط مرسومة، وتمكُّن من اللغة والصِّياغة وفنون العرض.

لقد قدَّمت لنا الدكتورة الصباغ، في كتابها هذا، نموذجًا فريدًا للكتابة في فن السِّيَر، يقوم على عرض الأفكار والحقائق بأسلوب أدبي رفيع، تخفقُ في تضاعيفه نبضات القلب، وترتسم بين كلماته خَفقات الوجدان، وتظهرُ فيه الأفكار موشّاةً بقالب من الحُسن والجمال والسِّحر، فيسير القارئ مع الكاتبة مستلهمًا الفكرة، في جوٍّ من الراحة والمتعة، وكأنه يلتقط رحيق الفكرة وثمارها

في رياض تفوح بعطر الزهور، وتُؤنِس المرءَ بصوت الماء المتدفِّق في الجداول، وتُطربُه بعذوبة الأنغام التي تصوغُها أسرابُ الطيور.

ويُضاف إلى جمال الأسلوب أنها قدَّمت في كتابها هذا آراءً نقدية مهمة، ترقى إلى مستوى اعتبارها منهجًا صالحًا لدراسة الأدب والحكم عليه.

ولعل أهم ما يتميَّز به نقدها هو البساطة والعفوية في رصد مواطن الجمال الأدبي، وإبراز الصور الفنيّة، ومكامن العاطفة والمشاعر في النص، إذ لا نشاهد عندها ما نراه عادة في كتابات المختصين من ثلاثيات النص والمرسِل والمتلقي، ولا نعثر في نقدها على المربعات والدوائر والأسهم، التي اعتدنا عليها في كتابات النقّاد، ولا نلمح كثرة الرموز والمصطلحات والتَّجزيء والتقطيع لأفكار النص، كما لا نُصادف في نقدها الجمالَ الأدبيّ موزَّعًا في أشلاءٍ متفرِّقة، ومعبَّرًا عنه بمعادلات ورموز رياضية وجداول إحصائية. كل ذلك لا نجده في نقدها، بل نجد نقدًا من نوع خاصّ، تُعرَض فيه الأفكار والقضايا النقدية بأسلوب أدبي ساحر، وبعرض فنّيّ لا يقلّ جمالاً عن النصوص الأدبية التي يسعى مبدعوها وراء المتعة والجمال، على نحو قولها في شعر فدوى طوقان:

«وشَعَرتُ، وهي تَبعَثُ بالكلماتِ، روحًا ومعنًى، أنها تُخرجُها من أغوارٍ عميقة خصبة... وآمَنتُ أنها شاعرةٌ، تتعمَّقُ في خفايا النَّفس، ولُجَجِ العاطفة، حتى يذوبَ شِعرُها مِن لفظٍ يُروى، وفكرةٍ تُستَوعَب، إلى حِسٍّ يُشعَرُ، ولذّةٍ تَطغَى، وأنه يسري من روحها اللّائبة إلى الأرواحِ حَولَها، سَريانَ شُعلةٍ من لهبٍ، تُضيءُ وتَحرقُ، ثم تَفنى في جمالٍ نفسيٍّ مُنتَشى»[1].

لقد عبَّرت الدكتورة الصباغ بهذه الكلمات عن أن شعر «فدوى طوقان»

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص١٤.

تعبير صادق عن مشاعرها وخفايا نفسها، وأن الشاعرة تُحسن انتقاء الألفاظ واختيار الأفكار، وتصبُّها في قالب شعريٍّ، فتتَّحد الألفاظ والأفكار متحوِّلةً إلى إحساس ينسكب في وجدان القارئ، ويأخذه في رحلةٍ شعورية متقلِّبًا في عالم الفكر والعاطفة، فكأن كلمات الشاعرة التي تخرج من روحها تدخل روح القارئ، وتتفاعل مع إحساسه، فتنبعثُ في نفسه لوحات وظلال وأنوار تجعله يَغرق في لذّة عاطفية ونشوة يبتعثها الجمال.

ولا شكّ أن هذه الأحكام النقدية تفسِّر خصائص شعر «فدوى طوقان»، وترصد بدقة وعمق ما يحدث في قلب القارئ من إحساس وانفعال وجمال، حين يقرأ أشعار المبدعين، وقد قدَّمت الدكتورة الصباغ هذه الأحكام النقدية بأسلوب فنيّ جميل.

وتتابع الدكتورة الصباغ نقدَها الفنيّ، لتسجِّل لنا انطباعها عن ديوان «وحدي مع الأيام» لفدوى طوقان، فتستعرض آراء النُّقاد، وتُبدي رأيها بكلمات موجزة، معبِّرةً بأسلوب فنّي عن حكم نقديٍّ عامٍّ على الديوان كله، فتقول:

«وعدتُ إلى ديوانها (وحدي مع الأيام) ... وإذا بشاعرتي فدوى طوقان تبرز لي من خلاله، لا فتاةً تُجيدُ الرّثاء، كما حدَّثتني عنها كثيراتٌ من السّيّدات، ولا امرأة تنجرف وراء الرمزية والغموض، كما عرَّفها كثير من الأدباء الرجال، وإنما نغمٌ صادح ضالٌّ، فيه ثورة صاخبة، وبكاءٌ حادٌّ، ينطلق متصاعدًا من وراء مجتمع آسِرٍ، لينسجمَ ويلتحم، بعد أن يتخطَّى أسلاكَه الشّائكةَ، مع لحن الكون. إنه دموع، ولكنها من تلك التي قال عنها أبو القاسم الشابي:

فمِنَ المَدامعِ ما تدفَّقَ جارِفًا حسَكَ الحَياهْ
يَرمي لهاويةِ الوجودِ بكلِّ أشواكِ الطُّغاهْ»[1]

وبهذه الكلمات المعبِّرة، وبهذا الأسلوب الفني الجميل، استطاعت الدكتورة الصباغ أن تنقل إلينا نظرتها إلى الديوان، وحكمها النقدي عليه.

فمن النقاد من رأى أن هذا الديوان ما هو إلا بُكاء على حلم غامض، وقطرات دموع انحدرت من قلب حسّاس ذاق ألوان العذاب واليأس في ظروف خفيّة مجهولة.

ومنهم من لم يستطع فهم الآفاق النفسية والفكرية، التي يحتويها الديوان، أو ربما لم يُعطِه حقَّه من التفكير والتأمّل، فألمَّ به إلمامةً سريعةً، وخلص إلى أن الشاعرة تميل في ديوانها إلى الرمزية والغموض، ولهذا جاء شعرها كأنه نغمات شعورية غامضة.

ولكن الدكتورة الصباغ التي كان من عادتها التأمّل الطويل، والتفكير العميق، والإحاطة بكل دقائق النص وإيحاءاته قبل إصدار الحكم، استبعدَت آراء النقاد السابقة، كما تبيَّن من كلامها، وذهبت إلى أن هذا الديوان هو صرخةٌ في وجه الظلم، وحسرة على الحنان المفقود، وبكاءٌ على النفس الحسّاسة التي فجعتها ظروف الواقع، ورمت بها في تلافيف الزمن المنسيّ، خلف كثبان ملتهبة، وسط صحارى تحثو رمالَها رياحُ المجهول.

وقد رفضت الدكتورة الصباغ أيضًا آراء بعض النقاد الذين رأوا أن شعر فدوى طوقان، بعد النكبة، قد أغرق في الرمزية والغموض، فتقول: «ويبدو شعرها في هذه المرحلة، لبعض النقاد، رمزيًّا غامضًا يخفض من عبقريتها.

(١) الصفحة ذاتها من المرجع السابق.

ولكني أقول بأن شعرها هذا، مع قصيدها الحَبِيِّ بكل تلافيفه، يُشكِّلان لُجّةَ نبوغها، وذروة شاعريتها. ففيه انطلاق واستقصاء وتَحرٍّ، وإنسانية وجمال، ويأس وصراع، ورغبة أكيدة في الخلود على الأرض قبل السماء، وتجديد وابتكار. وأحلى ما فيه تلك التساؤلات الشَّكِّية في المفاهيم الميتافيزيقية، التي لقنتها في حياتها، كالموت والبعث والخلود والعدل الإلهي... وبذلك تفتح فدوى أمام الشعر النسائي باب الفلسفة العميق بجرأة»[1].

وترى الدكتورة الصباغ أن شعر «فدوى» يصوِّر عالم المرأة الخفيَّ، وما فيه من ثورة وسكينة، وطموح ويأس، وإنسانية وحقد، ونزوع نحو الحياة بكل ما فيها من متع وجمال، تقول: «فإن فدوى طوقان قد استثارت مجتمعَنا المغلَق، بأن طرحت في ديوانها عليه أسرارَ عالم المرأة الإنسانيِّ الخفيّ، الذي يتلهَّف على أعماق الحياة بكل مساراتها، لا على سطوحها التّافهة. وفي ذلك تقول فدوى طوقان:

كم فتاةٍ رأت بشِعري انتفاضاتِ
رُؤاها الحبيسةِ المكتومهْ
كانَ شِعري مرآةَ كلِّ فتاةٍ
وأدَ الظُّلمُ روحَها المحرومهْ»[2]

وتُؤمِنُ الدكتورة الصباغ بأن للظروف التي تحيط بالإنسان، في مراحل حياته، تأثيرًا في تكوينه الفكري والنفسيّ، وحضورًا في مواقفه وكتاباته وإبداعه. ولهذا دعت إلى ضرورة الإلمام بكل الحوادث والحقائق، التي تؤثِّر في التكوين الفكري والنفسي والسلوكي، عند دراسة الشخصيات عامة، سواء في

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٤٧. والحَبِيّ: الغنيّ.
(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص١٦.

مجال البحث التاريخيّ، أم في مجال الدراسة الأدبية. وقد أوضحت مذهبها هذا في كتابها «دراسة في منهجية البحث التاريخي»، فذكرت أن على الباحث، عند الترجمة لشخصية ما، «إنشاءَ صيغة وصفية لها، وعلى الباحث أن يُضمِّن تلك الصيغة من الحقائق كلَّ ما أثَّر في تكوين عقليّتها ومهنتها وعاداتها، منذ ميلادها حتى وفاتها، مع تحديد الزمان والمكان، وكذلك كلَّ ما يُوضِّحُ أعمالها التي كان لها أثرها في المجتمع»[1].

وتطبيقًا لقناعتها السابقة توقَّفت طويلاً عند المحطّات الهامة، التي مرَّت بها الأديبات، اللواتي تحدَّثت عنهن في كتابها «من الأدب النسائي المعاصر»، فقالت في حديثها عن فدوى طوقان: «وإذا كان للجو الأول، الذي يتفتح عليه الطفل، أثره في حياته فيما بعد، فقد ترك حصنُ آل طوقان، بسعته المكانية، وفراغه الروحيّ بالنسبة لفدوى، دمغةً كئيبة قاتمةً في نفس الطفلة، لم تُزِلها الأيام، ولا ضحكاتُ الأمّ، ولا تطوُّرُ الحياة».[2]

وبهذا الإيجاز البليغ أوصلتْ إلينا الدكتورة الصباغ حُكمًا نقديًّا، يتمثَّل في انعكاس نفسيّة الأديب في أدبه، وأن تلك النفسيّة تتكوَّن في مراحل حياته كافّة بدءًا بالطفولة، ومرورًا بالتحوّلات الهامة التي يمرّ بها في عمره.

ومن المحطات التي توقَّفت عندها الدكتورة الصباغ، في دراستها لشعر فدوى طوقان، والتي كان لها أثرٌ في تكوينها الفكري والنفسي: العزلة الدائمة التي فرضتها تقاليد الأسرة، ومرض الملاريا، والحرمان من العطف، ومن متابعة الدراسة، والمعاناة من الغربة الاجتماعية.

---

(١) دراسة في منهجية البحث التاريخي ص٣٦٥.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص١٩.

وفي حديثها عن التقاليد ذكرت الدكتورة الصباغ أن آل طوقان عشيرةٌ عربية «إقطاعيّةٌ غنيّة، تتمثَّلُ التقاليدَ في ذاتها، وتُشيعها على مَن حولها، فهي ستكون طوقًا حديديًّا للعبقريات الفنية المنطلقة، حتى ولو كانت تلك العبقريات مندفعةً من أحشائها، ومتمثِّلةً في رجال، فكيف بالنساء»[1].

فأوّل محطّة كان على شاعرتنا أن تجتازها هي ولادتها في أسرة لا تُؤمن بالفن، ولا تَسمح لنفسها بأن تُهيِّئَ له حُضنًا دافئًا في حجرة التقاليد الشرقية الموروثة، وكان على مَن يشعر من أفرادها برهافة الحسّ، وتدفُّق العاطفة، أو الميل إلى التأمّل في أسرار الكون، أو الجنوح إلى الخيال، أن يحفر لنفسه مغارةً للكتمان، يدخل إليها في كل حين، ليُلقي فيها كلَّ ذلك، ثم يخرج مسرعًا مخافة أن يراه أحدٌ، وأن يُهيِّئ نفسَه للتكيُّف مع العزلة.

وهكذا فُرضت العزلة على شاعرتنا منذ الطفولة، وكان لها الأثرُ الكبير في نفسيّتها.

وتستقصي الدكتورة الصباغ جزئيّات هذه العزلة، وتتفنَّن في تصوير ظلماتها وشدّة وطأتها، فالشاعرة وُلدت في نابلس «ونابلس هذه مدينة عربية صغيرة في الوطن السليب، احتضنها سفحا جبلين، وبثّا في حناياها الماءَ والخُضرة، وحمياها من كل تأثير خارجيّ أو دخيل أجنبي. فانكفأت على نفسها، تجترُّ عزلتها، وتُحافظ على قِدمها وتقاليدها»[2].

فالمدينة معزولة عن الدنيا، لا تقتحمُ ظُلمتَها أنوارُ التطوُّر، ولا يتساقط فيها غيثٌ يحمل مع قطراته أخبار العالم، ولا تصدح في سمائها طيورٌ قادمة من البعيد.

---

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص١٨.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص١٨.

والعزلة الثانية التي عاشتها الشاعرة هي حصن آل طوقان «المنتصب كالحصن الإقطاعيّ على حافة جبل جرزيم، والمطلّ من طرفه الآخر على سوق نابلس وقلبِها الواهي الوجيب. وهو منزل واسع كمنازل الأرستقراطيين في دمشق منذ ربع قرن: مدخل ضيّق يُصعد إليه بسُلَّم، ثم سلَّم واسع، ثم ساحات منبسطة، وغرف عدّة يُوصَل إليها بأدراج، بعضها فسيح، وآخَر مُلتوٍ كحياتنا الاجتماعية السابقة»[1].

والعزلة الثالثة هي حرمانها من الحنان والعطف، إذ لم تكن تحظى «بمَسحة يد على شعرها، أو دغدغة أناملَ لخَدِّها، أو قبلة على جبينها... لقد شعرت وهي دون السابعة أنها شبه منبوذة وسط العائلة الكبيرة. وكم بكت وتحرَّقَت وهي ترى أختها الجميلةَ، التي تَصغرها بسنتين تتلقَّفها الأيدي، وترنّ لها الضحكات، وهي في الزوايا متلكِّئة مهمَلة. وهكذا انكمشت على نفسها وانصرفت إلى عزلتها»[2].

والعزلة الرابعة هي مرض الملاريا، الذي أصابها منذ صغرها، فانقضَّ على طفولتها، ونهشت مخالبُه في جسمها الطريّ الغضّ، «وزاد من انقباضها مرضُ الملاريا، الذي عَلق بها، وحطَّ من قواها، وأذوى عودَها، وأخمد الحيويّةَ من ملامح وجهها، وأضعف بريقَ عينيها، وأرهفَ من حساسيّة أعصابها»[3].

والعزلة الخامسة أن أسرتها قرَّرت حرمانها من الدراسة، حين بلغت الثالثة عشرة من عمرها، خوفًا من العار، «ففي ثورة العينين خطر، وفي قراءة

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص١٩.
(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٢٠.
(٣) من الأدب النسائي المعاصر ص١٩.

الشعر والأدب للأنثى ربما عار مرتقَب. فلتعِشْ في الحصن الفسيح، كما يعيش كثير من لداتها، ولتنتقِلْ في رحباته ضمن الجدران المرتفعة الشامخة، ولتنتظِرْ فيه زوجًا مرتقَبًا يحملها إلى حياة حصينةٍ وولدٍ»[1].

والعزلة السادسة هي إحساسها بالغربة بين أهلها ومجتمعها، إذ لم تكن تستسيغ أحاديث النساء، ولا تُعجبها اهتمامات الناس من حولها، وخاصةً بعد أن أُجبرت على ترك المدرسة، وفُرض عليها«أن تستمع بحرقةٍ تأكل حناياها إلى الأحاديث النّسويّة البالية، والتخرصات العائلية، وأن تشعر بنقمةٍ ممّن حولَها، وأن تَفرض نقمتها على مَن حولها، فعالَمُها غيرُ عالمهم، عالَم فيه مُثُلٌ ورُؤى، فيه طبيعة وانطلاق، فيه تحقيق للوجود، عالَمُها عالمُ حركةٍ يبتلع سكونَهم وهمودَهم»[2].

وداخل هذه الحجب الستّة، والظلمات التي ينبسط بعضها فوق بعض، كان على الطفلة فدوى طوقان أن تبحث عن المستحيل، عن ثقب يُوصلها إلى النور، عن أجنحة تحملها إلى الفضاء، عن نجمة تائهة تقتحم حُجرتها وتحدِّثها عن الطبيعة والكون، عن حِمَمٍ تنبعث من بركانٍ مفاجِئ وتُذيب جدران السجون.

وأخيرًا تلمع في عينيها شعلة النور والخلاص، إذ يعود أخوها الشاعر الكبير إبراهيم طوقان من بيروت، وتَخرجُ خفيةً مع أخٍ لها لاستقباله، فيتلقّاها إبراهيمُ بسعة صدرٍ وفرح، ويُربِّت على شعرها، ويُقبِّلها ويُحدِّثها، فتشعر «لأوّل مرّة أن عاطفتَها قد تركَّزت، وأن روحها العطشى قد ارتوت، وأن دنياها لن تدور إلا في فلك إبراهيم»[3].

---

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٢١.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٢٣.

(٣) من الأدب النسائي المعاصر ص٢٢.

وفعلاً يتعهّدها إبراهيم بالرعاية والحنان، ويُعلِّمها الشعرَ، ويُرشدها إلى القراءة والحفظ، لتشقَّ طريقها في ميدان الإبداع الشعري بصحبة أخيها، ثم بمفردها بعد وفاته سنة ١٩٤١، ولكن شعرها لم يخلُ من تجسيد حجب العزلة التي فُرضت عليها، والمأساة الأليمة التي غيَّبت أخاها ومعلِّمَها وعالَمها إبراهيم.

لقد وضعت الدكتورة الصباغ يدها على تلك المحطات التي مرَّت بها فدوى طوقان، وأسهمت في تكوين شخصيتها وعواطفها، ثم اتجهت إلى شعرها تُفسِّر طبيعتَه، وتربط بين ما فيه من معانٍ وعواطفَ وبين تلك المحطات، انطلاقًا من موقفها النقديّ بأن الأدب مرآة لشخصية الأديب وتجاربه وعواطفه، التي تؤثِّر في تكوينها أحداثُ حياته، والظروف المحيطة به.

وبعد أن عرَّفتنا الدكتورة الصباغ بالمحطات المؤثرة في حياة فدوى طوقان، وتوجهاتها الفكرية والعاطفية، لم يعد صعبًا على مَن يقرأ شعرها أن يفهم السرّ الكامن وراء ما تختزنه أشعارها من حزن طافح، وألم فائض، وحرارة عواطف، ويأس وقنوط، على نحو قولها في رثاء أخيها إبراهيم[1]:

وهَبَّــت رياحُ الرَّدى الفانيهْ
وأطفــأتِ الشُّعلةَ الغاليهْ
وأصبحتُ وحـدي
ولا نـورَ يَهـدي
أُجَلِجُ حَيرى بهذا الوجودْ

ولعلَّنا لا نحظى بناقد مختصٍّ قرأ شخصية فدوى طوقان، وتعمَّق في شعرها ومعانيه، كما قرأتها وتعمَّقت في دلالات شعرها الدكتورة الصباغ،

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٠.

وخاصة أن المرأة أعلمُ من الرجل بعالم المرأة، وأقدر على تفسير أفكارها وأحاسيسها وأحلامها ورموز شعرها.

وها هي الدكتورة الصباغ تسجِّل بعض الانطباعات والأحكام النقدية عن شعر فدوى طوقان. ولعل القارئ، الذي لا يعرف أن الدكتورة الصباغ مختصة بالتاريخ، يجزم بلا أدنى شكّ، أن صاحبة هذه الأحكام والآراء النقدية مختصة في الأدب والنقد، وتصدر في أحكامها عن علم بوسائل النقد الأدبي ومناهجه وقضاياه.

وأول حكم نقدي هو إلحاق فدوى طوقان بمدرسة الحداثة والتجديد في الشعر، تقول: «واشتهر اسمها (شاعرة) نابغة ومجدِّدة، ولا سيما بعد أن تخلَّت عن نمط الشعر التقليدي، والإيقاع الرتيب، وأخذت بقصيدة التفعيلة التي نادت بها (نازك الملائكة) والشعراءُ الشباب المجدِّدون»[1].

وتناولَت أوائلَ أشعارها، لتسجِّل لنا حُكمًا نقديًّا مهمًّا، فتقول: «فهو رغم قتامة موضوعاته يَعمق مع الزمن معنًى، ويَجزل لفظًا، ويَشفُّ لحنًا. وأجمل ما يُمثِّل هذه النزعة المستجِدة في شعرها قصيدتها (ضباب التأمّل)، التي تتساءل في نهايتها بلهجة فيها جدّيّة فلسفية، ممزوجة ببعض التهكُّم، وبفكر فيه انفعال وواقع، وبموسيقا فيها حرارة وتدفُّق، عن معنى حياتها، معبِّرةً بألفاظ كلُّها قفار وفراغ، عن الخواء النفسيّ الذي كانت تشعر به امرأة ذلك العصر، وعن حنين تلك المرأة المُصرِّ على الخصب الحياتيّ، والثقة الذاتية، والإبداع الخالق الخالد:

هذي حياتي ... خيبــةٌ وتمزُّقٌ يجتاح ذاتي

هذي حياتي ... فيمَ أحياها؟ وما معنى حياتي»[2].

---

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٢٩.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٠.

وترى الدكتورة الصباغ أن فدوى طوقان مرَّت بتجربة حبٍّ بعد رحيل أخيها إبراهيم، وكان لهذه التجربة أثر في شعرها الجديد، من حيث المعاني والصور والعاطفة، تقول: «وتمضي الأيام، وتحبُّ فدوى غيرَ حبِّها لأخيها. فتتفتَّق نفسُها الحبيسة من خلال الضباب، وتتساقط الأقنعةُ الخانقة لذاتها، وتندفع أناها العميقة مُخضوضِرةً نديّة لتحقيق الحياة، ويتفجَّر منها نسغ شاعريتها المفكِّرة الصحيحة، كالماء المنبجِس الدَّفّاق، رَقراقَ اللفظ، مستقصيَ المعنى، خالقَ الصُّور. وينسرح أدبها المكتوم، الذي كانت تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة، نحو عالم أوسع، وتجارب أغنى، وجوّ عاطفيّ أنقى. وهكذا ينكشف فجر شعرها الحارّ، وتتلاطم فيه إشعاعات نفسها المضيئة، في حركة متوثِّبة مندفعة»[1].

ويُشار إلى أن الدكتورة الصباغ مع خبرتها الواضحة في النقد الأدبي، وفهمها لمبادئه، وتمكنها من وسائله، لا تسمِّي نفسَها ناقدة، بل تصرُّ على أنها قارئة عاديّة للشعر فحسب، تتذوقه بحسِّها ثم تنقل انطباعها عنه إلى الآخرين، تقول: «ويُمكنني أن أقف قليلاً هنا، لأُطلّ معكم على مجموع شعر فدوى، لا كناقدة أدبية متمرِّسة، تُشَرِّح بمبضع حسِّها الجماليِّ الأدبيّ، وتقنيات النقد الأدبي العلمية المتعارف عليها، ذاك الشعر، فتَفصل غَثَّه عن سمينه، وتوضِّح معانيَ جماله الجزئيّة، أو عيوبَ ألفاظه وأوزانه وألحانه، وإنما كقارئة عادية تعتمد على حدسها، وتؤمن أن الجمالَ كلٌّ واحد، يُتذَوَّق ككلٍّ، ويُحَسُّ به عفويًّا دون تشريح وتقطيع»[2].

---

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣١.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٣١.

وهذا القول يدلّ على أن صاحبته عارفة بمبادئ النقد، ووظيفة الناقد، ولكنها ترفض الأساليب المتبعة فيه التي تقوم على تجزئة الجمال، وتقطيع النصّ، وتطويعه للفلسفات والمناهج الغريبة عن روح الفن والإبداع، وترى أن الجمال يُدرَك متكاملاً بالحدس والذوق، دون الحاجة إلى التقطيع والتشريح، أو تحميل النص دلالات وإيحاءات لم تخطر على بال الأديب المُبدع.

وباعتمادها على الحدس والذوق، القائمين على القراءة المتعمقة الواعية، ذهبت إلى أن شعر فدوى طوقان يُمكن تصنيفه في ثلاث مجموعات: «شعر الحبّ أو ما يُسمَّى عادة شعر الغزل، والشعر القومي، وشعر التأمل والفلسفة»[1].

وتردّ على النقاد الذين زعموا أن شعر فدوى طوقان، بمناحيه الثلاثة، ما هو إلا صورة صحيحة أو مشوَّهة من شعر أخيها إبراهيم، فتقول: «ومن الطبيعي أن تكون فدوى قد تأثَّرت تأثُّرًا عميقًا بشعر أخيها، وهو مثَلها الأعلى، والذي قادها على طريق الشعر، ولكنني أعتقد أن لشعرها شخصيّتَه المستقلّة البارزة، وطابعه الخاصّ المتفرّد. فهو شعر نِسويٌّ يتنفَّس عن أحاسيس امرأة، وينبثق بصدق ملتهب، وصراحة عفويّة، من أعماق امرأة. ومن هنا كان النبع غيرَ النبع، والفيض العاطفيُّ أعمق جذورًا في شعرها، وأشدُّ تدفُّقًا ورواءً من شعر إبراهيم، بل هو أكثر تحرُّرًا وانطلاقًا وخروجًا عن التقاليد الشعرية الموروثة، والأوزان العروضية المعروفة، من شعر أخيها»[2].

وفي هذا الحكم الصادر عن قراءة متعمِّقة، لشعر فدوى وأخيها معًا، استطاعت أن تميِّز تفرُّدَ شعر فدوى طوقان بطابع خاصّ، من إدراكها أنه

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣١.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٢.

ينبعث من قلب امرأة، حاملاً بين طياته خصائص عالَم مختلف كل الاختلاف عن عالَم الرجل. وبذلك تنمِّي في مجال النقد الأدبي فكرة أن الأدب الذي يصدر من قلب امرأة يحمل خصائص تجعله يتميَّز عن الأدب الصادر من قلب رجل.

وناقشت الدكتورة الصباغ آراء بعض النقاد الذين ذهبوا إلى تأثُّر فدوى طوقان بأبي القاسم الشابي، منطلقين من وجود سمات وجدانية مشتركة بينهما، فتقول: «إن إبداعها الشعريَّ أصيل، وله طابعه الخاصّ. وقد يكون الشبه أكبر بين وجدانية فدوى وأبي القاسم الشابي، مما هي بين وجدانيتها وأخيها، ولو أنه يُحَسُّ أن شعر الشابي أكثر غوصًا في مكتنهات الحياة واتجاهاتها الفلسفية، وأكثر انسيابًا مع الألفاظ والأوزان من شعر فدوى. وربما ينبري قائل بأنها لا بدّ متأثرة بأبي القاسم، ولكن الواقع لا يُثبِت لنا ذلك، إذ إن الاتصالات الثقافية في تلك الأعوام، كما نعلم، لم تكن على ما هي عليه اليوم. وربما البيئات المتشابهة، والإحساسات المرهَفة، يُمكنها أن تَخلق، في ظروف معيَّنة متوافقة، أنغامًا متماثلة. وإن كان هذا لا يمنع من أن تتأثَّر فدوى بما نشره الشابي في بعض شعرها المتأخِّر»[1].

وبعد أن أثبتت لفدوى طوقان الطابع الشعريَّ المتفرِّد، والشخصية الفنية المستقلة، اتجهت إلى تحديد الخصائص العامة لشعرها، بقولها: «إن شعرَ فدوى شعرٌ وجدانيٌّ، يتحلَّل فيه الجمال إلى أطيافه الصُّوَريّة والموسيقية، وفيه جدة الموضوع، وكثافة الفِكَر، وصدق الواقع، واتساع أفق الخيال، وعفوية العاطفة بمختلف ألوانها. وفي شعر فدوى من المستجدّات تسلسل الحديث وعذوبته، والقصة وطلاوتها، وعاطفيّة المخاطبة المباشرة، وما تولِّده من مشارَكات

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٢.

وجدانية مع القارئ والمستمع»[1].

وعلى هذا النحو من التحليل العميق لشعر فدوى طوقان ومزاياه، تصل إلى شعر الحب عندها، فترى فيه ما لم يخطر على بال النقاد الذين تحدَّثوا عن شعرها، تقول: «ولا أميل إلى تسمية شعر الحب عند فدوى بشعر غزل، لأنه لا غزل فيه بمعناه التقليديّ المتداوَل، الذي ينحني على جسم الحبيب فيَجسّ انعطافاته، ويتمايل مع تأوُّداته، أو ينكبُّ على الوجه فيُعانق تقاطيعَه وقَسماته، ويُمجِّد ثناياه ولمحاتِه. ففدوى في شعرها هذا تصف الحبَّ عاطفة إنسانية كونية، أكثر مما تصف مَن تُحبّ، وهي سعيدة بحبِّها أو شقيّة به، أكثر من سعادتها بمن تحبُّ أو شقائها به. فشعرها غزل في الحبِّ لا في الحبيب»[2].

وترى الدكتورة الصباغ أن التأمل في شعر فدوى طوقان يُؤكِّد ما ذهبت إليه، من أن شعرها يُمثِّل الغزل في الحبّ لا في الحبيب، فتقول: «وتظهر في شعر فدوى صورتان: إحداهما فيها صدق عاطفة وحِسِّية ورغبة في تحقيق الحياة بمعناها الأرضيّ. والثانية فيها عمق وخيال، وتبتُّل ونقاء، وتتسامى حتى تتحوَّل إلى حبٍّ صوفيّ كونيٍّ»[3].

وتتعمَّق في شعر فدوى طوقان، وفي شعر الحبِّ خاصّة، محاولة أن تكتشف فلسفتها في الحبّ، وموقفها منه، فتنتهي إلى أن الحبَّ عندها هو سرُّ الكون، وسبب الحياة، وتجد أنه في قصائدها: «تتهادى فلسفة فدوى الخاصة عن الحب والجمال، وأن الحبّ هو سرّ الكون، وسبب تدافعه الحركي، وهو مُبدع الجمال

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٢ - ٣٣.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٣ - ٣٤.

(٣) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٥.

ومعانيه، ومالئ الوجود. وهو الذي يُوزِّع قطرات هذا الجمال على جدب الحياة، فيُحوِّلها خصيبة زاخرة. فليس الجمال إذًا هو القيمة المطلقة التي تبعث الحبَّ في كيان الكون، وإنما الحبّ هو الذي يُولِّد كلَّ القيم المطلقة، ويدفعها متدفِّقة نحو تحقيق ذاتيّاتها:

أفـي الحبِّ قوةُ خَلـقٍ
تُحيلُ المُحبِّينَ كيفَ تَشـاءْ
تُرى ما الهـوى؟ أهو روح الحياة؟
تُـرى ما الهوى؟ أهو سِرُّ البَقاءْ»[1].

وبمثل هذا الفهم العميق، لشعر فدوى طوقان، تنتقل الدكتورة الصباغ إلى دراسة بعض قصائدها، من حيث الموضوع والألفاظ والموسيقا والعاطفة، مثبِّتة أحكامًا نقدية يحتاجها كلُّ مَن يدرس شعر فدوى طوقان، ولا يُمكنه أن يستغني عنها أو يتجاهلها.

ويُمكن تلخيص أهم الأفكار النقدية التي برزت في دراسة الدكتورة الصباغ لشعر فدوى طوقان بما يلي:

١- الشعر مرآة لشخصية الشاعر وعواطفه ومواقفه وفلسفاته وأفكاره.

٢- سيرة الأديب والأحداث الهامة في حياته لها حضور في أدبه، ولها أثر في تحديد الموضوعات والاتجاهات الأدبية عنده.

٣- الجمال في النصّ الأدبي يتألف من عناصر عدّة هي: الصورة والموسيقا والفكرة والعاطفة، ويُدرك بالذوق والحدس إدراكًا كليًّا.

٤- الأدب يحمل خصائص الجنس البشري للمُبدع، فما تكتبه المرأة يُمكن

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٦.

تمييزه عمّا يكتبه الرجل.

٥- البيئات المتشابهة والظروف المتشابهة تولِّد أدبًا متشابهًا، وفي هذه الحالة لا نحكم على الأدباء الذين عاشو ظروفًا متشابهة بالتأثُّر بل بالأصالة.

٦- القصيدة في الشعر الحديث تبدو كالكائن الحيِّي المتكامل، ولهذا لا يُمكن الاقتصار على أبيات دون غيرها، أو اختيار مقتطفات، تقول: «من الصعب في شعر فدوى تقديم مقتطفات فقط من قصيدة أو قصائد، لأن قصيدها لا ينسجم إلا ككلّ، ولأن جماله هو في تلاحق صوره، ومنطقية عرضه»[١].

٧- القراءة المتعمقة والشاملة للديوان، والقدرة على التذوق الأدبي، هما الأساس في الأحكام النقدية الصحيحة، ولا يجوز الحكم على الشاعر وإبداعه إلا بعد الإلمام بسيرته وأهم المحطات في حياته، وقراءة ديوانه قراءة شاملة ومعمَّقة، ومعايشة أدبه بالحدس والتذوق والإحساس.

٨- التفريق من حيث الأسلوب والبنية بين الأدب المُعدِّ للإلقاء، وبين الأدب المعدّ للقراءة، تقول: «فأدب الإلقاء قد يختلف قليلاً عن أدب المطالعة، في حجمه وبنيته وأسلوبه»[٢]. وترى الدكتورة الصباغ أن تقديم الأدب المُعَدّ للإلقاء مكتوبًا للقرّاء يُفقده بعضَ عناصر الجمال، «فهو في هذا التحويل سيفقد بعض عناصره، ومن أهمها الصوت بانفعالات صاحبه المختلفة، وتموُّجاته المتنوعة، التي قد تدعم القدرة على التعبير والتأثير، أو تُضعفها، ولا سيما إذا كان المطروح في الحديث أو المحاضرة شعرًا»[٣].

---

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٣٦.

(٢) نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع ص١١.

(٣) نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع ص١٢.

ولم تكتف الدكتورة الصباغ بالوقوف على شعر فدوى طوقان، بل تناولت أيضًا شعر نازك الملائكة، وقدَّمَت آراء نقدية هامة بأسلوب أدبي جميل، تصدق عليه تسميته بـ«فن النقد» أو «النقد الفني».

❊ ❊ ❊

موقفها من قضايا المرأة

إن قراءة مؤلفات الدكتورة الصباغ، وخاصة «من الأدب النسائي المعاصر»، و«رجال ونساء في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع»، و«المرأة في تاريخ العرب قبل الإسلام» تُظهر بوضوح موقفها من المرأة، وآراءها المتعلقة بحقوق المرأة وواجباتها.

فهي ترى أن المرأة تمتلك طاقات فكرية عظيمة، ولكن معظم هذه الطاقات تضيع في ازدحام الحياة وضجيجها، فلا تتحوَّل أزهار الإبداع إلى ثمار، ولا تحتفظ أنهار الفكر بعذوبة مائها حين تصب في بحار المجتمع ومحيطات الحياة الواسعة.

وترى أن مسؤولية ضياع طاقات المرأة تقع على المرأة نفسها من جهة، وعلى المجتمع من جهة أخرى.

فالمرأة نفسها في مجتمعنا تميل إلى الكسل والخمول، فتكتفي بأن تكون أمًّا تهب حياتها لأطفالها وزوجها، وتخوض في أحاديث النساء في محيطها، أو بنتًا تتنقَّل أمام المرآة في بيت والدها، تترقب الزوج المنتظَر، أو أخرى سارت في طريق العلم لكنها تذرَّعت بأن تقاليد المجتمع تقف في وجهها، وتمنعها من متابعة الطريق، فتراجعت وانكفأت على ذاتها أمام المرآة مُعجَبة بجمالها متغزلة بنفسها، وهي تجتمع مع أترابها حول قصص واهية، وأحاديث تافهة، وقد أسلمت مستقبلها إلى الفشل، وعمرها للسنين تنهش نضارته، ثم ترميها

عجوزًا في زوايا بيوت أبنائها، تنتظر أمنية واحدة هي الموت.

وفي المقابل تقع مسؤولية ضياع قدرات المرأة على المجتمع أيضًا، فالمجتمع بما فيه من عادات وتقاليد كان ينظر إلى المرأة على أنها تابعة للرجل، وليست شخصيةً مستقلة عنه، فعند أهلها تختفي شخصيتها أمام سطوة الرجل متمثِّلاً بالأب والإخوة، وفي بيت زوجها تتوارى خلف أبواب المطابخ والحجرات الداخلية المظلمة مستنفرة الحواس تنتظر طلبًا من الزوج، على حين يكون الزوج في الحجرة الواسعة يستقبل الضيوف، أو في بيوت الوجهاء، أو في مجالس الأسواق، أو مكاتب العمل، يُشارك في نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية، فإذا أَذِنَ المساءُ له بالاستراحة عاد إلى بيته، ليجلس مع أولاده ويتناول معهم الطعام ويتفقد أحوالهم وحاجاتهم، ثم يلتفت إلى زوجته يُناقش معها أمور البيت والأولاد، ولا ينالها من اهتمامه إلا بمقدار ما يحتاجه النوم من وقت ليتحكم في الأجفان النَّعسة، والقلوب التي أثقلتها أعباء العمل والحياة طوال النهار.

ولعل من أشد ما كان يؤلم الدكتورة الصباغ وقوفُ المجتمع في وجه تطلعات المرأة وطموحها، ورؤيتُها للتقاليد الظالمة تبسط سطوتها على هذا الملاك الطاهر، وتتحكم في أنفاسه ونبضات قلبه، وتدعه يتحطم في زوايا النسيان دون أن يشعر أحد بحرقة قلبه، ولهيب كبده، وحسرة نفسه، وحرارة دموعه.

لقد أحزنها كثيرًا إيمانُها بأن المرأة كنز ثمين يُنكر العالمُ قيمتَه، ولا يُحاول أحد اكتشافَه، وأن المرأة بحر من الإبداع يتدفَّق ويموج خلف الحُجُب، ولا أحد يدري مكانَه وأسرارَه، وأنها فيض من المشاعر المكبوته والأحاسيس المسجونة خلف الضلوع والحشا، لا يأذن لها البشرُ بالخروج إلى الفضاء الفسيح

الذي تزهر فيه الأماني وتنساب فيه الأحلام.

لقد دافعت الدكتورة ليلى الصباغ كثيرًا في كتاباتها ومؤلَّفاتها ومحاضراتها عن المرأة، وطالبت المجتمع أن يمنحها الحقوق، وأن يُهيِّئ لها الظروف لتتمكن من التعلم، والمشاركة بفاعلية في الحياة، كما طالبت المجتمع بالتفكير والمراجعة لتلك التقاليد الظالمة التي تراكمت فيه، والتي تحدّ من حرية المرأة في العمل والتعلّم، وتجعلها مخلوقًا من الدرجة الثانية، يلهث وراء الرجل، دون أن يكون لها موقع مؤثِّر في الحياة.

وفي المقابل كانت تلحّ على المرأة، وتطالبها أن تحترم تقاليد المجتمع النافعة، وأن تكون مثالاً في العفة والكرامة وصون الأخلاق، وهي ترى أن لا كرامة للمرأة إذا مزقت ثوب الحياء والطهارة. ولذلك كانت تمقت النساء اللواتي يُطالبن بحقوق المرأة، ويرين أن حريتها لا تتحقَّق إلا في الخروج على مكارم الأخلاق، وتمزيق ستار الفضيلة والعفة.

وقد سألتُها - رحمها الله - مرةً عن رأيها في الآراء والدعوات التي نسمعها تتردد كثيرًا في الجمعيات والتجمعات النسائية المطالبة بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل. فأجابت بأن هؤلاء النسوة ضيَّعن حياتهن في الشعارات الجوفاء والكلام الفارغ، ولا يعرفن أصلاً من حقوق المرأة إلا التفلُّت من رباط الفضيلة، وتدمير حياة الأسرة، وتمزيق الروابط الاجتماعية، وليتهنّ بدأن بأنفسهن بعد أن يعرفن أن المرأة تستطيع أن تُثبت وجودها، وأن تكون فاعلة في المجتمع، بمقدار تمسكها بالفضيلة، ونبذها للكسل والبلادة، وسلوكها طريق العلم.

ومما قالته أيضًا أن المرأة في وقتنا الحاضر لم تعد تعاني مما كان سائدًا في مجتمعنا قبل عقود، إذ أصبح الناس يحرصون على تعليم بناتهم كما يحرصون على

تعليم أبنائهم. ولذلك إذا أرادت المرأة أن تكون فاعلة في المجتمع فالظروف متاحة أمامها، وما عليها إلا أن تُشمِّر عن ساعد الجدّ والاجتهاد، وأن تكفَّ عن الكلام الفارغ والدعوات الجوفاء، وأن تحترم نفسها بصونها من الانزلاق في متاهات الباطل، وعندها ستجد لها مكانًا مرموقًا في المجتمع، وقيمة عظيمة في الحياة.

* * *

مما سبق يظهر أن الدكتورة ليلى الصباغ اختارت طريق العلم، ومضت فيه بكل عزيمة وصبر، فكانت مثالاً يُحتذى في العلم والنجاح والتفوق، وقدوة صالحة في العفة والخلق القويم، ونموذجًا للمرأة العربية التي استطاعت بعملها المتواصل، وفكرها الساطع، وعبقريتها المتميِّزة، وتصميمها الذي لا يعرف الحدود، أن تلج حصون البيان والسحر والإبداع، وأن تُقدِّم للحضارة الإنسانية رحيقًا طيِّبًا من الفكر والعاطفة والجمال، سوف يبقى أريجه يفوح في القلوب والعقول، وسوف تبقى ذكراه ترتسم غماماتٍ شفّافةً في صفحات الكون.

* * *

الفصل الثاني

مؤلَّفات الدكتورة ليلى الصباغ

يتضمن هذا الفصل دراسة مفصَّلة لمؤلَّفات الدكتورة ليلى الصباغ المنشورة، مرتبة بحسب تاريخ نشرها. والغرض من هذه الدراسة إظهار المضمون الفكري لهذه المؤلَّفات، وبيان مدى قيمتها العلمية في مجال التاريخ خاصة، وفي مجال الثقافة العربية عامة.

والمؤلَّفات المدروسة هي:

١- **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني**. دمشق ١٩٧٣.

٢- **المرأة في التاريخ العربي (في تاريخ العرب قبل الإسلام)**. دمشق ١٩٧٥.

٣- **دراسة في منهجية البحث التاريخي**. مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٩.

٤- **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**. مطبوعات جامعة دمشق١٩٨٠.

٥- **معالم تاريخ أوربة في العصر الحديث**. مطبوعات جامعة دمشق١٩٨٠.

٦- **من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: المؤرخ المُحِبّي وكتابه خلاصة الأثر**. الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق ١٩٨٦.

٧- **الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر**. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩.

٨- **نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع**. دمشق عام ١٩٩٥.

٩- **من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي**. دمشق عام ١٩٩٦.

١٠- **فلسطين في مذكّرات الفارس دارفيو**. بيروت ١٩٩٦.

* * *

أولاً ـ المجتمع السوري
في مطلع العهد العثماني[1]

يُعدُّ هذا الكتاب مرجعًا مهمًّا في دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في سورية، في مطلع العهد العثماني، وتأتي أهميته من احتوائه على معلومات غزيرة ومفصَّلة عن المجتمع السوري وتقاليده، والعلاقات بين أبنائه، وتعايشه مع الحكام العثمانيِّين وولاتهم، وموقفه آنذاك من التيارات الفكرية الغربية التي كانت تحوم حوله، وتندفع في أرضه، إضافة إلى معلومات عن النظام الإداري والسياسي الذي كان سائدًا في تلك المدة التي يُصنَّف الكثير من أحداثها وأحوال الناس فيها ضمن قائمة المجهول.

وقد تحدَّثت الدكتورة الصباغ، في الفصل الأول من هذا الكتاب، عن أوضاع سورية في نهاية الحكم المملوكي، وبداية الحكم العثماني. فذكرت التنظيم الإداري العثماني لسورية، وما استحدثه السلطان سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠م)، وبعده السلطان سليمان القانوني (١٥٢٢- ١٥٦٦م)، من تشريعات جديدة، وتقسيمات إدارية، وما أبقياه ممّا كان سائدًا في سورية قبل دخول العثمانيين إليها.

وقد أوضحَت أن الإدارة العثمانية اعتمدت في سورية على النظام الإقطاعي الذي كان سائدًا في أنحاء الإمبراطورية، إذ كان كل إقطاعي مسؤولاً

(١) منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٣.

عن إدارة ما يقع تحت سلطته من أرض وفلاحين، ويقدم للسلطة المركزية الضرائب والمقاتلين والسلاح، ويشرف على تطبيق القوانين ومراقبة أوضاع الناس وعلاقاتهم.

ثم انتقلَت في الفصل الثاني إلى دراسة الحياة الاقتصادية في سورية في المدة بين (١٥١٦- ١٥٦٦)، فتحدثت عن واقع الزراعة، وملكية الأرض، والضرائب المفروضة على الفلاحين، وتلك المفروضة على إنتاج الأرض، والتشريعات التي تُلزم الفلاح بزراعة أرضه، والمشكلات التي كانت تواجه الزراعة، وأهم المحاصيل الزراعية كالقطن والقمح والشعير، والأشجار المثمرة كالتوت والزيتون والفواكه المختلفة.

وتحدثت أيضًا عن الأدوات المستعملة في الزراعة كالمحراث الخشبي الذي تجرُّه الثيران، وطرق المواصلات الزراعية، وأساليب الريّ، وتربية الحيوان، ونمط الحياة الريفية، وغذاء السكان. وانتهت إلى أن الفلاح كان في تلك المرحلة يعيش حياة صعبة تحت نفوذ أصحاب الأرض، ولم تحاول الدولة العثمانية أن تبحث عن حلول إيجابية جديدة لرفع مستوى الفلاح المادّي والمعنويّ، يضاف إلى ذلك اضطراب الأمن، وغارات البدو على القرى والطرق، والمشاكل التي تنشأ بين الإقطاعات، والتنازع بين الفلاحين وأصحاب الأرض، وما كان يُسبّبه ذلك من اجتياح الأرض الزراعية، وسلب المحاصيل أو حرقها، وترك الأرض دون زراعة.

وفي مجال الصناعة تحدثت الدكتورة الصباغ عن المشكلات التي واجهت الصناعة في مطلع العهد العثماني، كمنافسة البضائع الأوربية في أسواق الاستهلاك، ونقل المهرة والصناع إلى إستانبول، واعتمادها على الأسلوب

اليـدوي، وضـعف رأس المـال. ثـم تحـدثت عـن التقاليـد المتبعـة في إدارة الـصناعات، وعـن أهـم المنتجـات كالنـسيج والزيـوت والـصابون والـسكّر والطحين وتقطير الورود والدباغة والسيوف والأواني النحاسية.

وفي مجـال التجـارة تحـدّثت الـدكتورة الـصباغ عـن الموقـع التجـاري الهـام لسورية بين آسيا وأوربـة وإفريقيـة، ثـم الانتكاسـة التـي أصـابَت التجـارة بعـد اكتشاف الأوربيين لرأس الرجـاء الـصالح وتحـوّل التجـارة عـبره. وذكـرت أن التجارة الداخلية نشطت في مطلع العهد العثمانيّ بين سورية من جهة، وبلاد الأناضول ومصر من جهة أخرى، يُضاف إلى ذلك أنه كان لقوافل الحج أثر واضح في ازدهارها.

أما التجارة الخارجية فقد كانت مزدهرة بسبب الموقع الجغرافي لسورية، لكنها تعثّرت بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وانتقالها من أيدي العرب والمدن الإيطالية إلى البرتغاليين، وسكان غربي أوربة، يُضاف إلى ذلك أن هذه التجارة بدأت تتوضّع في أيدي الجاليات الأجنبية التي استقرت في سورية.

وانتهت إلى أن سورية لم تفقد أهميتها التجارية، رغم الصعوبات التي واجهتها التجارة، كضعف الإدارة العثمانية، واختلال الأمن، وصعوبة النقل، وكثرة الضرائب، وازدهار الصناعة في أوربة.

وفي الفصل الثالث تحدّثت عن الحياة الاجتماعية، فذكرت طبقات المجتمع، وواقع التعليم، واهتمام السلاطين العثمانيين بالمؤسسة الدينية، ورعايتهم للعلماء والقضاة والمعلمين والمشرفين على المساجد والمدارس. ثم تحدثت عن العلاقة بين طبقات المجتمع، وبين المسلمين وغيرهم، إضافة إلى حديث مفصّل عن حياة الأسرة، وعادات الشعب السوري في الزواج

والسكن، والعمل والمناسبات الدينية في الموالد والحج والصيام والأعياد.

وخصَّصت الفصل الرابع للحياة الثقافية، فذكرت أن «سورية خضعت للحكم العثماني، وهي تعاني بعض الشلل في حياتها الفكرية»[1]، لأنها لم تتعاف بعد من الهجوم المغولي والتتري. ثم تحدّثت عن واقع التعليم في مطلع العهد العثماني في الكتاتيب والمدارس والمساجد الكبرى، والتيارات الدينية التي سادت في المجتمع السوري، ولا سيما التصوف الذي انتشرت فِرَقُه في أنحاء الإمبراطورية، بتشجيع ورعاية وتقدير من السلاطين أنفسهم. وإلى جانب العلوم الدينية كان يُدرَّس الطّبُّ والصيدلة والآداب، كما اهتم السلاطين بالفن المعماري فبنوا الكثير من المساجد، وزيَّنُوها بالزخارف التي ما تزال شاهدة على الفنّ العثماني وإبداعاته.

وانتهت أخيرًا إلى أن العثمانيين لم يفرضوا عزلةً على المجتمع السوري، كما يرى كثير من المؤرِّخين، وإنما المجتمع السوري نفسه هو الذي حمى ذاته بذاته من التغلغل الأوربي، حفاظًا على عاداته وقيمه وتقاليده، من أن تقتلعها رياح خارجية[2].

* * *

(١) المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ص١٦٨.

(٢) المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ص٢٢٨.

ثانيًا- المرأة في التاريخ العربي
«في تاريخ العرب قبل الإسلام»[1]

يتميَّز هذا الكتاب بضيق موضوعه، وقلّةِ مراجعه، وتبعثر مادته العلمية في مصنفات ومراجع كثيرة في مجالات متنوعة، بحيث يحتاج جمعها إلى جهد كبير، وصبر منقطع النظير.

ومع وجود هذه العقبات استطاعت الدكتورة الصباغ أن تُنشئ من الشتات المبعثر، والمعلومات المحجوبة خلف غبار السطور، بحثًا رصينًا متكاملاً، وذلك بفضل ما بذلته من جهود في الوقوف على المادة العلمية الموزعة في الوثائق، ومصنفات التاريخ، وكتب الحديث الشريف، والشروح الأدبية واللغوية، إضافة إلى مراجع أجنبية باللغتين الإنكليزية والفرنسية.

وتأتي أهمية البحث من تسليط الضوء ليس على دور المرأة في التاريخ العربي قبل الإسلام فحسب، وإنما على شتى جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية والفنية، في مرحلة من مراحل التاريخ العربي، يتهيَّب الولوج فيها معظم الباحثين والمختصين، لأنهم يدركون ما ينتظرهم من صعوبات وعوائق.

واللافت للانتباه ما يجده القارئ في هذا البحث من موضوعية؛ فالباحثة كان هدفها إبراز دور المرأة في التاريخ العربي قبل الإسلام، ومع ذلك لا نجد

(١) منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٥.

مبالغة في تصوير حضور المرأة في تاريخ الحقبة المقصودة، أو ادعاءً بأن الدور الذي أدته المرأة فيها كان على درجة كبيرة من الأهمية، بل على العكس تمامًا، إذ قادها الالتزام بالموضوعية إلى درجة الاعتراف بأن المرأة في تلك الحقبة لم تكن في الغالب أكثر من ظل للرجل، وهو الذي كان الفاعل الحقيقي والمؤثر في الأحداث التاريخية.

ويتألف الكتاب من خمسة فصول وخاتمة. ففي الفصل الأول تحدَّثت عن دور المرأة في الحياة الاقتصادية قبل الإسلام، فذكرت أن الاقتصاد كان يقوم على الزراعة والتجارة وتربية الحيوان والصيد، إضافة إلى الصناعات اليدوية الأساسية كالمنسوجات والأواني التي يحتاجها العربي في معيشته.

وتوصَّلت إلى أن المرأة كانت تُشارك في الصناعات الضرورية لحياة الأسرة، وكانت في الحواضر تُساعد الرجلَ في الزراعة، كما كان لبعض النساء نشاط في التجارة، لكن الغالب أن المرأة لم يكن لها نشاط مستقلّ في الحياة الاقتصادية، وإنما كانت شريكًا للرجل بالجهد وأحيانًا بالفكرة والرأي والتحفيز. فالإبداع في نظر الدكتورة الصباغ ليس من صنع الرجل وحدَه أو المرأة بمفردها، وإنما هو تفاعل إنساني عام، «ومن الصعب معرفة ما للمرأة منه وما للرجل، فقد يكون إيحاء الفكرة من واحد، وتطويرها وتنميتها من آخر... وعلى هذا فالمرأة شريك، وشريك فعّال»[1].

وفي الفصل الثاني تحدَّثت عن دور المرأة في الحياة الاجتماعية، فذكرت ما كان موجودًا في المجتمع من عادات وتقاليد وعلاقات، ووقفتْ مطوَّلاً عند الزواج وأنواعه، وما أقرَّه الإسلام منها، وما حرَّمه من سُبُل التواصل بين المرأة

(١) المرأة في التاريخ العربي ص٥٦- ٥٧.

والرجل مما ترفضه الأديان والذوق السليم والكرامة الإنسانية، وتحدَّثت أيضًا عن عادة الوأد التي كانت شائعة عند بعض القبائل، وعن صلة المرأة الحرة والأمة، بالرجل الحر والعبد، سواء كانت أمًّا أم بنتًا أم زوجة...

وانتهت إلى أن المرأة كانت تؤدي دورًا بارزًا في الحياة الاجتماعية، عن طريق تربية الأولاد وإعدادهم، والمشاركة في أمور الحياة والمناسبات والتواصل بين الناس.

وتحدَّثت في الفصل الثالث عن دور المرأة في الحياة السياسية، فأشارت إلى أن الأنظمة السياسية، في البلاد العربية قبل الإسلام، كانت متنوعة تبعًا لتنوُّع الأقاليم، والنمط السائد للحياة الاقتصادية، فحيث وُجدت الزراعة والاقتصاد المستقرّ نشأت الممالك والإمارات، كما هو الشأن في اليمن ومصر والشام والعراق، وساعد على قيام هذه الممالك والإمارات وفرة المياه وازدهار التجارة ونموّ النباتات الرعوية.

وفيما عدا الممالك والإمارات كان النظام القبلي هو السائد، وخاصة في مناطق الجزيرة العربية. وكانت حياة الناس ضمن القبائل تعتمد على تربية الحيوان والصيد والغزو.

وكانت الحروب والغزوات تنتشر بين الممالك والإمارات والقبائل للسيطرة على الأرض، وتوسيع النفوذ، وسلب المواشي والأرزاق، وهذه الحروب كانت تفرض وجود تحالفات دائمة أو مؤقتة بحسب مصلحة المتحالِفين.

ويتمثل دور المرأة في الحياة السياسية عامة بوجودها إلى جانب الرجل في الرأي والمشورة والحثّ على الصلح والدعوة إلى الثأر، وكان لها تأثير بارز أحيانًا، عن طريق المصاهرة، في الصلح والتحالفات وإشعال الحروب والدعوة

إليها، كما كان لها تأثير كبير في حياة الفروسية العربية، عن طريق حثّ الفرسان على القتال والثبات ومواجهة الأعداء.

يُضاف إلى ذلك أن المرأة استطاعت أن تصل إلى المُلك في بعض الحضارات العربية، والتاريخ فيه شواهد كثيرة على ملكات عربيات، كبلقيس وزنوبيا وغيرهما، كان لهن شأن كبير، وأعمال مهمّة في السياسة والحروب وبناء المدن والقلاع والحصون.

وفي الفصل الرابع تحدَّثت عن دور المرأة في الحياة الفكرية، فذكرت أن الحياة الفكرية قبل الإسلام تجلَّت مظاهرها في الشعر والنثر، وفي بعض المعارف الأخرى كالكهانة والسحر والطبّ والفلك والأنواء.

ففي الشعر ظهر بعض الشاعرات كالخنساء وغيرها، ولكن لم تبلغ المرأة فيه مبلغ الرجل، فكانت القبائل تُقيم الأفراح إذا نبغ فيها شاعر، ولم يُروَ أن قبيلة احتفلت لنبوغ شاعرة فيها. وكان للمرأة حضور في الشعر عامةً باعتبارها موضوعًا مهمًّا ألهم الشعراء، وأخرج مكنون مشاعرهم وعواطفهم، ولا تكاد القصائد الجاهلية تخلو من ذكر المرأة، وخاصة في المقدِّمات الغزلية.

أما في الكهانة والسحر فكان للمرأة دور هامّ فيهما، وتذخر كتب الأدب والتاريخ بقصص لكواهن كان يعود إليهنّ الملوك والأمراء وأصحاب النفوذ وعامة الناس.

ويبقى دور المرأة في الحياة الفكرية، على كل حال، ضيِّقًا قياسًا إلى دور الرجل، بسبب خصوصية التقاليد التي لا تُبيح للمرأة الحرة الاختلاط الواسع بالرجال والسفر والتجوّل بين القبائل والبلدان.

وفي الفصل الخامس تحدَّثت عن دور المرأة في الحياة الفنية، فذكرت أن

الكثير من المعابد والقصور والتماثيل شيَّدها الملوك والأمراء نزولاً عند رغبة زوجاتهم، وتحقيقًا لآمالهن، وبعض الآثار الفنية والمعمارية شيَّدتها المرأة التي وصلت إلى الحكم، كما فعلت بلقيس في اليمن وزنوبيا في تدمر.

ومن الفنون التي عرفها المجتمع العربي، قبل الإسلام، الغناء والموسيقا والرقص، ومن البديهي أن يكون للمرأة الدور البارز فيها، بما تمتلكه من جمال الصوت، وخفّة الحركة، والرشاقة في التجاوب مع الأنغام، ولكن هذه الفنون كانت تقتصر على الجواري والإماء، لأن المرأة الحرة لم تكن تسمح لها التقاليد بالغناء والرقص، كما كانت هي ذاتها ترى في هذه الفنون امتهانًا لشخصيتها ومكانتها الاجتماعية، فكانت ممارستها لها تقتصر على الغناء لطفلها قبل النوم، وفي المجالس الخاصة بالنساء.

وفي الخاتمة تحدَّثت الدكتورة الصباغ عن طابع هذا البحث وخصوصيته، وأجملَت ما توصَّلت إليه من نتائج.

ولتسهيل الإفادة من الكتاب وضعت له المؤلِّفة فهرسًا بأسماء الأعلام والأحداث والمصطلحات واللغة، لتُساعد القارئ على الوصول إلى المعلومات بسهولة ويُسر.

* * *

ثالثاً- دراسة في منهجية البحث التاريخي[1]

يتضمَّن الكتاب تحديدًا للأسس والطرائق الصحيحة، التي يُفتَرض بالباحث في مجال التاريخ أن يسير وفقها للوصول إلى الحقائق.

ويتألف من مقدمة وسبعة فصول وخاتمة، ويُعدُّ من أهم مؤلَّفات الدكتورة الصباغ، كما يُعبِّر بوضوح عن شخصيتها العلمية المتميِّزة، وسعة اطلاعها وإلمامها بدقائق العلوم الإنسانية والتطبيقية التي يستند إليها علم التاريخ، يُضاف إلى ذلك أنه يُعَدُّ في حدِّ ذاته مَرجِعًا مهمًّا في مناهج البحث العلمي عامةً، والعلوم الإنسانية بفروعها كافةً، لأن السعي وراء الحقيقة لا يختلف في ملامحه العامة بين علم وآخر؛ فمناهج البحث في العلوم كلها تستند إلى المنطق الإنساني الذي يتجلى في الالتزام بقواعد التفكير الصحيح والمحاكمة العقلية السليمة، ثم يُضاف إلى الملامح العامة بعضُ التقنيات الخاصة بكل فرع من فروع المعرفة.

وقد عرَّفت الدكتورة الصباغ في مقدمة الكتاب «منهج البحث التاريخي» بأنه: مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخيُّ والمؤرِّخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل دقائقه وزواياه، وكما كان عليه في زمانه ومكانه، وبجميع تفاعلات الحياة فيه[2].

---

(١) من منشورات جامعة دمشق عام ١٩٧٩.

(٢) دراسة في منهجية البحث التاريخي ص٣.

وترى أن هذه الطرائق قابلة دومًا للتطوُّر، لذلك يجب على الباحث التاريخي أن يبقى على صلة حيّة بما يُطرَح في مجال المنهج من أفكار جديدة.

ثم عرضَت آراء المفكّرين الذين أنكروا أن يكون التاريخ أحد فروع العلم، لأن الحقائق العلمية يتم إثباتها عن طريق الملاحظة المباشرة، ثم استنباط القوانين، ثم التعميم والحتمية، على حين أن الحوادث التاريخية لا يُمكن فيها تطبيق التجربة، ولا الملاحظة المباشرة في كثير منها. وهؤلاء يرون أن التاريخ لا يعدو كونَه فنًّا من الفنون، أو نوعًا ممتعًا من الأدب، كُتب بحسب مزاج كاتبيه وأهوائهم.

وانتهت إلى أن التاريخ علم قائم بذاته، وهو أحد فروع العلوم الإنسانية. ثم عرضَت جهود العرب والأوربيِّين في رسم منهج البحث التاريخي وإرساء معالمه.

وفي الفصل الأول تحدَّثَت عن نشأة علم التاريخ وتطوره، عند العرب والغرب، وأهم المؤرِّخين الذين أسهموا في وضع ضوابط لهذا العلم، بحيث أصبح علمًا مستقلاً له أسسه وقوانينه، وله غاية هي «إبراز الحقائق والأحداث ليتعلَّم الإنسانُ ويكتسبَ المعرفة على مرّ العصور»[1].

وتحدَّثَت عن واقع التأريخ في أوربة قبل الميلاد وبعدَه مرورًا بالعصر الوسيط وعصر النهضة ثم العصر الحديث، كما ذكرت إسهام العرب في هذا العلم قبل الإسلام، وجهودَهم فيه بعد الإسلام، حين أصبح علمًا مهمًّا، واسع الأبواب والمداخل، غزير المادة، متنوع الموضوعات، كثير المصنفات، له منهجيته الخاصة التي تقوم على جمع المصادر وتحليل المادة ونقدها والتفنُّن في الصياغة والأداء.

ثم ذكرَت العوامل التي كانت وراء تطور البحث التاريخي في أوربة في

(١) دراسة في منهجية البحث التاريخي ص٢٤.

العصر الحديث وهي:

١- تبلوُر أشكال التقنيات الأساسية للبحث التاريخي.

٢- وضوح الغرض من كتابة التاريخ.

٣- تقدُّم العلوم المختلفة وخاصّة العلوم الإنسانية.

٤- اتساع مضمون التاريخ وتنوُّعه.

٥- نموّ الشمولية العامة والمتعمّقة للتاريخ.

وختمَت الفصل بالحديث عن المدارس والاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في القرن العشرين.

وفي الفصل الثاني تحدَّثَت الدكتورة الصباغ عن الصلة بين علم التاريخ والعلوم الأخرى. فذكرت أنه يعتمد على علوم كثيرة مساعدة هي:

١- علم التوقيت: الذي يبحث في الزمن بصفته أحد أسس الوجود الإنساني.

٢- علم الجغرافية: الذي يُقدِّم وصفًا للمحيط المكاني الذي يعيش فيه الفرد والجماعة، وله أهميّة كبيرة في نشوء الحوادث التاريخية وتفسيرها.

٣- علم الخرائط التاريخية: ويُزوِّد الباحث بخرائط علمية لتمثيل الحوادث التاريخية.

٤- علم اللغات والألسن: يُقدِّم وصفًا للغات القديمة والحديثة، ويُمكِّن الباحث من تعرُّفِ أنماط الحياة والفكر عند الشعوب.

٥- علم فقه اللغة: الذي يبحث في قوانين لغة ما وقواعد تطورها، ويُساعد الباحث التاريخي على فهم النصوص المكتوبة، وتتبُّع تاريخ الوثائق، وتمييز الوثائق الأصلية من الوثائق المنسوخة.

٦- علم الآثار: يُمكِّن الباحث من معرفة ما تعنيه النقوش والكتابات

والأشكال والتماثيل المكتشفة، ويضع بين يديه مادة مهمة تكشف الضوء عن أحوال الشعوب في الحقبة التي تنتمي إليها النقوش.

٧- علم الخطوط القديمة: يُزوِّد الباحث بما تعنيه رموز الكتابة في الوثائق المختلفة مع تحديد زمنها.

٨- علم الشِّفرة: يُساعد الباحث على قراءة الوثائق السرية وفهم محتوياتها.

٩- علم الوثائق: الذي يُمكِّن الباحث من معرفة الوثائق الرسمية الصحيحة والمزيفة.

١٠- علم النقود أو علم النّمّيات: يُعرِّف الباحثَ التاريخي بمعلومات عن البنية السياسية والاجتماعية، لأن النقود تُسَكُّ بأسماء الملوك وأصحاب النفوذ في الحقبة الزمنية التي تعود إليها.

١١- علم الأختام: يُساعد الباحث على معرفة جزء هام من تاريخ مرحلة زمنية معينة، عن طريق شكله، ومادته التي صُنع منها، وما احتواه من معلومات ورسوم.

١٢- علم النقوش الكتابية: الذي يُزوِّد الباحث التاريخي بمعلومات عن القانون والإدارة والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، والأدب واللغة، وتاريخ المباني التي تحمل النقوش.

١٣- علم الأسماء: يزوِّد الباحث بأسماء الأمكنة والأشخاص والأنهار، التي كانت متداوَلة في مدة معينة، وفي بيئة جغرافية محدَّدة.

١٤- علم الأنساب: يُساعد الباحث على معرفة صلات القرابة، في كثير من الأمور الهامة، كالتحالفات والمعاهدات والحروب والمعاملات وغير ذلك.

١٥- علم الرنوك: الذي يبحث في الشعارات والرموز المتوارثة الخاصة

بالأسر أو الجماعات أو الأفراد. وهو يُوجِّه الباحث توجيهًا صحيحًا لمعرفة الزمن والأشخاص، ويُمكِّنه من إثبات صحة ما يقع تحت يده من دروع وأسلحة ووثائق ومقتنيات أخرى.

١٦- علم الاقتصاد: الذي يدرس النُّظم والموارد والمنتجات الاقتصادية، التي تُعدُّ محرِّكًا أساسيًّا للحوادث التاريخية والحروب، ومقياسًا لمدى التطور والرخاء.

١٧- علم الأقوام: الذي يبحث في صفات كل قوم بهدف رسم الخطوط العامة لبنية المجتمعات وتطورها، وهو يزوِّد الباحثَ بالمعلومات التي تُساعده على فهم حياة كل مجتمع وأساليبه في العيش.

١٨- علم السكان: الذي يدرس السكان وعددهم وتكاثرهم وأعمارهم وصفاتهم، ويُقدِّم للباحث معلومات مهمة تُساعده على تفسير كثير من الحوادث.

١٩- علم الاجتماع: وهو يهتم بدراسة المؤسسات الاجتماعية الحيّة، من حيث تكوُّنها وعملها وتطوُّرها، ويُزوِّد الباحثَ التاريخيَّ بنماذج حية من المجتمعات البدائية الموجودة مثلاً في إفريقية وأمريكية اللاتينية، تُشبه المجتمعات القديمة التي يدرسها الباحث.

٢٠- علم الإحصاء: الذي يُوفِّر للباحث بالجداول والأرقام معلومات ضرورية لمعرفة المجتمعات وتركيبتها السكانية والحركة الاقتصادية فيها، التي تكون وراء نشوء الحوادث وتطوُّرها.

٢١- علم النفس: يقدِّم للباحث تفسيرات منطقية للدوافع النفسية التي كانت وراء اتخاذ بعض الشخصيات التاريخية لبعض المواقف، وسلوكها سلوكًا معيَّنًا.

٢٢- علم النفس الاجتماعي: الذي يُزوِّد الباحث بخصائص التفكير

السائد في المجتمع والسلوك الجماعي لأفراده.

٢٣- الأدب: ويُساعد الباحث على إدراك كثير من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسلوكية، التي كانت سائدة في المرحلة التي عاش فيها الأديب.

٢٤- الفنون: التي تُعدُّ مرآة للعصر، تعكس حياة المجتمع وحضارته، وتُظهر الكثير من تقاليده وتطلعاته.

كانت هذه أهم العلوم التي ذكرتها الدكتورة الصباغ، وأوضحَتْ أن الباحث التاريخيّ يحتاج إليها في دراسة الحوادث التاريخية وتفسيرها والتحقُّق منها. وقد آثرتُ عرضها هنا لإلقاء الضوء على منهجها في التأليف، وسعة اطلاعها، ونظرتها إلى أهمية علم التاريخ وواجبات الباحث في مجالاته.

وفي الفصل الثالث من الكتاب تحدَّثَت الدكتورة الصباغ عن الأسس التي يُفترض بالباحث التاريخي أن يُراعيَها ويحتكم إليها عند اختيار موضوع البحث. فرأت أن الموضوع يجب أن تتحقَّق فيه الشروط التالية:

١- أن يختاره الباحث بنفسه، أو بمساعدة غيره بعد مناقشة جوانبه كلها.

٢- أن يكون الموضوع ذا أهمية في الماضي، وذا معنى ومغزى للحاضر.

٣- أن يُلاقي الموضوع حبًّا وميلاً لدى الباحث.

٤- أن تكون المشكلة المطروحة جديدة في مضمونها، وتُضيف جديدًا للمعرفة الإنسانية.

٥- أن يكون الباحث قادرًا على الإلمام والإحاطة بالمشكلة المطروحة.

٦- أن تكون المصادر والمراجع والوثائق التي تُعالج المشكلة متوفِّرة.

وفي الفصل الرابع تحدَّثَت عن جمع المصادر من دور الأرشيف والمكتبات

والمتاحف، إضافة إلى الرواية المباشرة، أو المصدر الحيّ، عن طريق الاتصال بالناس الذين عايشوا المشكلة المطروحة أو عاصروها، ثم استخلاص كل ما يتصل بالمشكلة المطروحة من معلومات، وكلّ ما يُساعد الباحث على تفسيرها.

وفي الفصل الخامس تحدَّثَت الدكتورة الصباغ عن نقد المصادر والمعلومات التاريخية، فقسمت النقد إلى نوعين:

خارجي يتضمَّن إثباتَ صحّة الأصل التاريخي بمجموعه، وترميمه، وتحديد مصدر الوثيقة.

وداخلي يتضمَّن تفسير الأصل التاريخي، وإدراك معناه الحقيقي، ومعرفة مدى صحة المعلومات، وموضوعية كاتبها.

وختمت الفصل بالقول بأن «شخصية الباحث التاريخي، وخياله المبدع والخصب، وعلميّة تفكيره ودقّته، وثقافته الواسعة، وقوة ملاحظته، وانتباهه، وقدراته المتنوعة، هي الشروط الأولى لنجاح عمله، واقترابه من الحقيقة الثابتة»[1].

وتحدَّثتْ في الفصل السادس عن التركيب التاريخي، الذي يعني تكوين صورة متكاملة من الحقائق الجزئية، التي جُمعت من الوثائق المختلفة، أي إن التركيب هو ضمّ الحقائق الجزئية وتنظيمها، للحصول على حقيقة تامة متكاملة، ويحتاج إلى العمليات التالية:

١- تكوين صورة فكرية واضحة لكل حقيقة من الحقائق المتجمعة لدى الباحث.

٢- تصنيف تلك الحقائق في أقسام متجانسة.

٣- ملء الثغرات التي تظهر بعد التصنيف.

---

(١) دراسة في منهجية البحث التاريخي ص٣٠٤.

٤- البحث في العلاقة بين الحقائق المتجمعة، والعلاقة بينها وبين الحقائق الإنسانية الأوسع، للوصول إلى النتائج والتعميم.

ثم تحدَّثت عن الفلسفات التي يعتمد عليها المؤرِّخون في التعليل للنتائج التي يتوصلون إليها، وعن المدارس التاريخية ومذاهبها في الدراسة والتعليل والاستنتاج، وعن ضرورة أن يكون المؤرِّخ متمتِّعًا بخيال مُبدع، ومحاكمة قوية وسليمة، وثقافة واسعة وعميقة.

وفي الفصل السابع تحدَّثت عن إنشاء البحث التاريخي الذي يقوم على الصياغة والعرض.

فالصياغة يجب أن تكون قصيرة وموجزة، حتى تكون سهلة المتناوَل، ودقيقة في آنٍ واحد. ولا يتحقَّق ذلك إلا بضغط الحقائق، وطرح كل ما ليس ضروريًّا لتوضيحها.

أما العرض فقد أوضحَت أن المقصود به تأليف البحث وفق مخطَّط يرسمه الباحث في ذهنه، ويشمل النقاط الآتية: المقدمة والمتن والخاتمة والهوامش والملاحق وثبت المصادر والمراجع والفهارس الفنية والفهرس العام.

ثم ختمَت الفصل بالحديث عن لغة الباحث وأسلوبه، فذكرت أن على الباحث «أن يكتب ببساطة متجنِّبًا الإبهام والاستطراد، وألا يُطيل من جُمَله حتى تبقى الفِكَر متواصلة، وأن يبتعد عن صيغ الجزم والحتمية والمبالغة، وأن يشرح الحقائق والفِكَر، وهو واضع نصب عينيه أن ما يعرفه هو من خلفيّاتٍ للأمور لا يعرفه قارئه، فلا بدّ من تنويره، فهو لا يكتب لنفسه، وإنما ليَنشر ما يكتب ويُدركه القرّاء...

ومهما يكن فإن رصانة العبارة، والبعد عن الإسفاف، واختيار الألفاظ

الدقيقة المحدَّدة، والاصطلاحات التاريخية بمضموناتها السليمة، واتّباع العبارة المركَّزة دون تكرار في المرادفات والمعاني، والسعي لربط متين بين الجُمَل والفقرات، هذه كلها المرتكزات الأساسية في أسلوب التعبير التاريخي أيًّا كان القارئ. وإن استعمال التساؤلات، والوصف الحسي الدقيق، وضرب الأمثلة، قد يُضفي على هذا الأسلوب ألوانًا مشوِّقة تجذب القارئ لمتابعته»[1].

وفي خاتمة البحث تحدَّثَت الدكتورة الصباغ عن الصفات التي يجدر بالباحث التاريخي أن يتصف بها، وهي صفات علمية وخلقية يحسن أن يتصف بها كلُّ الباحثين سواء كانوا مؤرِّخين أم عاملين في مجالات العلوم الأخرى، كالصدق والأمانة والتواضع والتعايش مع الناس واحترام الآخرين وآرائهم، إضافة إلى الموضوعية والثقافة والفكر النقدي السليم.

ويُعدُّ هذا الكتاب، كما ذُكر سابقًا، من أهم مؤلَّفات الدكتورة الصباغ، وهو يُعبِّر عن منهجها في التأليف، وسعة اطلاعها وإفادتها من العلوم الأخرى في كتاباتها التاريخية، كما يُعبِّر عن الجهد الكبير التي تبذله للوصول إلى الحقائق، وتقديمها وفق رؤية موضوعية ومنهج علميّ سليم.

* * *

(١) دراسة في منهجية البحث التاريخي ص٣٦٨.

رابعًا- تاريخ العرب الحديث والمعاصر[1]

وهو كتاب تعليميّ، وضعته الدكتورة ليلى الصباغ ليُدرَّس لطلاب السنة الرابعة في قسم التاريخ بكلية الآداب.

وهو يؤرّخ لأهم الأحداث التاريخية، التي مرَّت بها البلاد العربية، في العصر الحديث. وقد عرضت تلك الأحداث موزعةً على مرحلتين:

الأولى هي تاريخ العرب الحديث، وتمتدّ من دخول العثمانيين إلى البلاد العربية بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦ حتى حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨. وقد خصَّصت الباب الأول من الكتاب لدراسة هذه المرحلة.

والمرحلة الثانية هي تاريخ العرب المعاصر، وتبدأ بحملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨، وتمتد إلى الوقت الحاضر. وهذه المرحلة تشغل الباب الثاني من الكتاب.

وأشارت إلى أن تاريخ العرب الحديث والمعاصر يتسم بسمتين عامتين تفسران معظم أحداثه، وهما: ارتباطه الوثيق بتاريخ الدولة العثمانية، وصلته المباشرة بالتطورات التاريخية التي كانت تعيشها أوربة[2].

يتألف الباب الأول من ستة فصول، عرضَت فيها الدكتورة الصباغ أحوال العالم العربي بين سقوط بغداد ومطلع العصر الحديث، وتاريخ نشوء الدولة

---

(١) من منشورات جامعة دمشق عام ١٩٨٨.

(٢) تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص٣.

العثمانية وأنظمتها السياسية والإدارية، وأحوال البلاد العربية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في ظل الحكم العثماني. وانتهت إلى أن أحوال البلاد العربية كانت تتقلَّب بين الاستقرار والأمن والرخاء، وبين الفوضى والفقر والاضطراب، تبعًا لقوة الدولة العثمانية وضعفها، والظروف التي كانت تمرُّ بها[1].

ويتوزَّع الباب الثاني على خمسة فصول، تحدثت فيها الدكتورة الصباغ عن بوادر اليقظة العربية ومراحلها وسماتها ومظاهرها الفكرية والسياسية والاقتصادية، وضعف الدولة العثمانية وأثر ذلك في البلاد العربية، ثم وقوع البلاد العربية بيد الاستعمار الأوربي، وما جرَّه ذلك من صراعات عسكرية وحضارية وأحلاف ومعاهدات، كانت تشتعل نيرانها في صميم المجتمعات العربية، وتعبث بوجودها وهويتها وحياة أبنائها.

ويتصف الكتاب بما يلي:

١- يؤرِّخ لأحداث تمتد على نحو خمسة قرون، ويقدِّم للدارس معلومات تاريخية مهمة عن حقبة من تاريخ العرب، ما تزال معظم تفاصيلها مجهولة، وتحتاج إلى المزيد من الدراسات الموضوعية المتعمقة.

٢- يقدِّم الكتاب تفسيرًا منطقيًّا وآخرَ وثائقيًّا لكثير من الأحداث والظروف والأحوال، التي مرت بها البلاد العربية في المدة المدروسة.

٣- اعتمد الكتاب على كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، فجاءت النتائج والأحكام على درجة عالية من الدقة، لاعتمادها على استقراء شبه تام، واستقصاء دقيق للمادة العلمية.

٤- الميل إلى التفصيل في الأحداث، والبحث عن الجزئيات الصغيرة التي

---

(١) تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص٢١٩.

تتألف منها المادة العلمية.

٥- تذييل الكتاب بفهرس يتضمن الأعلام والأحداث والمصطلحات والمناسبات والصناعات والمواد وغير ذلك. وهذا يُسهِّل على الباحث الإفادة من الكتاب.

٦- يتجاوز الكتاب الغرض الذي وُضِع من أجله، وهو تزويد الطلاب الجامعيين بالمعرفة التاريخية للحقبة المدروسة، إذ يمكن اعتباره من المراجع المهمة للباحثين أيضًا.

٧- يُضاف إلى ما سبق أن الكتاب طُبع بخط صغير. وحين تساءلت عن السبب أجابني أحد الأساتذة الذين كانوا على صلة بها أنها قصدت ذلك لكي يصغر حجم الكتاب، ومِن ثمَّ يقلُّ ثمنُه!

وهذا السلوك الإنساني النبيل يدلُّ على مدى حبِّها للطلاب وتقديرها لهم، وحرصها على إيصال العلم للقارئ معطَّرًا بمشاعر الرحمة والعطف.

* * *

خامسًا ـ معالم تاريخ أوربة في العصر الحديث[1]

وهو كتاب تعليميّ، وضعته الدكتورة ليلى الصباغ ليُدرَّس لطلاب السنة الرابعة في قسم التاريخ بجامعة دمشق.

وهو يؤرّخ لأهم الأحداث التاريخية التي مرَّت بها أوربة، في العصر الحديث، وكان لها تأثير واضح في حياة شعوبها، وشعوب الأرض عامة.

ومصطلح العصر الحديث، كما يقدِّمه الكتاب، يُقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تبدأ بعام ١٤٩٢م، وهو العام الذي خرج فيه العرب من الأندلس (إسبانية)، بعد سقوط «غرناطة» آخر معاقل العرب بيد الإسبان، وفيه اكتشف «كريستوف كولومبوس» قارة أمريكة، التي كان لها دور بارز في أحداث العالم. وتنتهي هذه المرحلة بقيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، التي حملت أفكارًا وتصوُّرات كان لها التأثير الواضح في الحياة الأوربية والعالمية.

والمرحلة الثانية (المعاصرة): وتمتد من الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م إلى الوقت الحاضر، وهي مرحلة التطور الكبير في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والإدارية والعلمية والثقافية، ومرحلة السيطرة الاستعمارية الأوربية على أجزاء واسعة من العالم، وفيها جرت أهم الحروب في العصر الحديث، ولا سيما الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، والثانية عام ١٩٣٩، وما أعقبهما من

(١) من منشورات جامعة دمشق عام ١٩٨٨.

أحداث وتحوّلات وصراع بين العقائد الفكرية والتوجهات السياسية في العالم.

ويتألف الكتاب من مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة.

ففي المدخل تحدَّثت عن القارة الأوربية من الناحية الجغرافية، وعن أحوالها الاقتصادية والسياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية والصحية، بدءًا من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وانتهاءً بأواخر القرن الخامس عشر، وتحديدًا عام ١٤٩٢م.

وتحدَّثَت في الباب الأول عن تاريخ أوربة منذ أواخر القرن الخامس عشر، حتى أواخر القرن السادس عشر، وهذه المدة تُمثّل، بما ساد فيها من نهضة عامة وإصلاح ديني، مطلعَ العصور الحديثة، وفيها حدثت أهم الكشوف الجغرافية، وهي: اكتشاف القارة الأمريكية على يد كريستوف كولومبس عام ١٤٩٢م، ورأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي على يد فاسكو دوغاما عام ١٤٩٨م، واكتشاف المحيط الهادي والتحقق من كروية الأرض على يد ماجلان عام ١٥٢١م، وما كان لهذه الاكتشافات من تحولات أساسية في الاقتصاد الأوربي والتجارة، أثَّرَت بوضوحٍ في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فظهرت الإمبراطوريات الاستعمارية، والدول القومية، والشركات الكبرى، ورافقَ ذلك نهضةٌ فكرية وعلمية وتطور سريع في كل مجالات الحياة، كما حدثت حروب كثيرة بعضها بدافع ديني داخل القارة الأوربية، وحروب بين الأوربيين والعثمانيين في البحر المتوسط وأوربة الشرقية، وحروب بين الإمبراطوريات الاستعمارية، وأخرى بين الملوك والأمراء والإقطاعيين بغرض السيطرة على الأراضي أو الاستيلاء على الحكم.

وتحدَّثَت في الباب الثاني عن تاريخ أوربة في القرن السابع عشر، وفيه

عانت أوربة من أزمات اقتصادية، وحروب داخلية بدوافع دينية وتوسُّعية، وأخرى خارجية مع الدولة العثمانية، وكان لهذه الحروب أثر في تراجع بعض الدول والإمبراطوريات كالسويد وإسبانية، وظهور أخرى قوية ومؤثرة في الأحداث كفرنسة وإنكلترة وروسية.

وتحدَّثَت في الباب الثالث عن تاريخ أوربة في القرن الثامن عشر، الذي شهد تطوُّرًا كبيرًا في مجال الصناعة والاختراعات العلمية، وتغيُّرًا في أنظمة الحكم والقوانين، ونموًّا في عدد السكان، وازديادًا في الثروة، واعتمادًا واسعًا على الطاقة والآلة، وتطوُّرًا فكريًّا وعلميًّا وفنّيًّا، وظهورًا لفلسفات جديدة.

وفي هذا القرن ازداد نفوذ الاستعمار الأوربي في العالم، وأدى ذلك إلى وقوع صدامات وحروب بين الإمبراطوريات الاستعمارية، وثوراتٍ كثيرة قامت بها الشعوب المستعمَرة للتخلص من السيطرة الأوربية على بلدانها.

وفي الخاتمة تحدَّثَت عن السمات العامة للعصور الحديثة في أوربة، وما جرى فيها من تطور في مجالات الحياة كافة.

ويتصف الكتاب بما يلي:

١- يشمل مدة طويلة من تاريخ أوربة، تبدأ بمنتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وتنتهي بأواخر القرن الثامن عشر.

٢- التوسّع في عرض الأحداث التاريخية ودوافعها وآثارها على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

٣- الاعتماد على كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، فجاءت النتائج والأحكام على درجة عالية من الدقة والاستقصاء.

٤- دقة التبويب والترتيب، وجمال العرض، وسلاسة الأسلوب.

٥- غنى الكتاب بالمعلومات التي لا يستغني عنها الباحث في تاريخ أوربة الحديث.

٦- تذييل الكتاب بفهرس يتضمن الأعلام والأحداث والمصطلحات والمناسبات والصناعات والمواد وغير ذلك. وهذا يُسهِّل على الباحثين والطلاب الإفادة من الكتاب.

تضمين الكتاب عددًا من الخرائط التاريخية، التي تُساعد القارئ على فهم التاريخ السياسي لأوربة في العصر الحديث.

* * *

سادسًا- مختارات من كتاب
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر
لابن فضل الله المحبِّي (ت ١١١١هـ)

نُشرت هذه المختارات في جزأين ضمن سلسلة (المختار من التراث)، التي تُصدرها مديرية إحياء التراث في وزارة الثقافة السورية، تحت الرقم (٢٥) و(٢٦) من السلسلة المذكورة لعام ١٩٨٣.

وقد صدَّرت الدكتورة الصباغ القسمَ الأول من المختارات بمقدمة مطوَّلة، أضافَت عليها فيما بعد، ونشرتها لها الشركة المتحدة للتوزيع في دمشق عام ١٩٨٦، تحت عنوان «**من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: المؤرخ المُحِبّي وكتابه خلاصة الأثر**».

تحدَّثَت الدكتورة الصباغ في المقدمة عن حضارة المجتمع العربي في ظل الحكم العثماني (١٥١٦- ١٩١٦م)، فحاولت أن تُغيِّر النظرة السائدة لدى كثير من الباحثين، الذين وسموا هذه الحقبة بالتخلف والانحدار والتدهور. فذكرت أن هذه النظرة ليست موضوعية، لأنها قامت على استقراء ناقص، ودراسات سطحية، وأحكام متسرعة، مستدلة على ذلك بالحركة العلمية التي ازدهرت في تلك الحقبة، وما صاحبها من بناء للمدارس والمساجد والمراكز العلمية، وكثرة المؤلَّفات الموسوعية، ونبوغ عدد كبير من العلماء العرب وغيرهم في شتى ميادين العلم.

ثم تحدَّثت عن القيمة العلمية لكتاب خلاصة الأثر، فذكرت أن الكتاب يكتسب قيمته مما يلي[1]:

١- معاصرةُ المؤلِّف لكثير من الشخصيات التي يُترجِم لها، أو لقاؤه بمن عاصروا أصحاب التَّراجِم.

٢- معايشته للأحداث والأحوال المختلفة التي تتضمنها تراجم الكتاب، أو قربه الزمني منها.

٣- سَعة ثقافة المؤلِّف، وتجوُّله في كثير من البلدان التي عاش فيها أصحاب التراجم أو أقاموا بها.

٤- غزارة المعلومات التي يقدِّمها المؤلِّف في التراجم.

٥- تناوُل الكتاب لمرحلة زمنية لا تتوفَّر مصادرُ وافيةٌ لدراستها.

٦- إجماع المصادر على اتِّصاف المؤلِّف بالصدق والأمانة والنزاهة والتجرُّد، واتباعه منهجًا علميًّا سليمًا، وهذا ما جعل الكتابَ من المؤلَّفات التاريخية الموثوقة.

٧- اعتبار الكتاب من المراجع الهامة في الأدب، لما يتصف به من أسلوب رصين، وما حواه من أشعار وأخبار.

وبعد أن تحدَّثت الدكتورة الصباغ عن قيمة الكتاب خصَّصت حيِّزًا من المقدمة للترجمة لمؤلِّفه، فذكرت ولادته وأسرتَه وصفاته وطلبه للعلم ورحلاته، والحوادث الهامة في حياته، والمحطات المؤثرة في تكوينه النفسي والثقافي، ومؤلَّفاته التاريخية والأدبية[2].

---

(١) مقدمة المختار من خلاصة الأثر (٢٥) ص١٩- ٢٢.

(٢) مقدمة المختار من خلاصة الأثر (٢٥) ص٢٣- ٥٠.

ثم انتقلتْ بعد ذلك إلى التعريف بكتاب خلاصة الأثر[1]، فذكرت أنه يتألف من (١٩٨٤) صفحة، ويقع في أربعة أجزاء، ويحوي (١٢٨٩) ترجمة، وهو من كتب الطبقات، لأنه مختصٌّ بتراجم الرجال ضمن قرن من الزمان، هو القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

أما أصحاب التراجم فهم من الملوك والأمراء، والعلماء، والأدباء. والتراجم مرتبةٌ على حروف المعجم، وتختلف من حيث الطول والقصر بحسب أهميّة المترجَم له، وإسهاماته، وتوفُّر المعلومات عنه.

ثم تحدَّثت الدكتورة الصباغ عن مضمون الجزء الأول من المختارات، وهو «تراجِم أعلام السياسة والإدارة»، فذكرت أن هذه المجموعة تضم الملوك والأمراء، ومَن يرتبط بهم من قضاة ومُفتين ووُعّاظ وأئمة مساجد وعامِلِين آخرِين.

وعرضَت، ضمن حديثها عن أعلام السياسة والإدارة، واقعَ البلاد العربية في ظل الحكم العثماني، من جهة السياسة والإدارة والاقتصاد والحروب والحياة الاجتماعية، كما تحدَّثت عمّا يُمكن تحصيلُه من كتاب «خلاصة الأثر» من معلومات في مختلف نواحي الفكر، ومن إضاءات على معظم جوانب الحياة، في القرن الحادي عشر الهجري، وخاصة الحياة الاجتماعية كالأسرة واللباس والطعام، والعادات التي كانت سائدة في المجتمعات العربية، في مناسبات الزواج والوفاة والختانة والأعياد، إضافة إلى تناول الحشيش والتبغ.

وختمت المقدمة ببيان رأيها في الكتاب وقيمته بقولها: «إن كتاب خلاصة الأثر سفرٌ تاريخيٌّ ثمين من تراثنا العربيّ، يُمثِّل فكرًا عربيًّا إسلاميًّا، عميقَ النّظرة، وشاملَ الرُّؤية، قويَّ التَّحليل ودقيقَه، ومتينَ التَّركيب، مستقصيًا

(١) مقدمة المختار من خلاصة الأثر (٢٥) ص٥١- ٦٣.

للحقيقة ومتحرِّيًا لها، ومُثبتًا أن الفكرَ العربيّ ما فتئ متحرِّكًا ومُبدعًا، ومِعطاء حتى في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، المتَّهم خطأً وتجنّيًا بالجمود أو بالانحطاط»[1].

ثم عرضتْ بعد المقدِّمة الهامة والمفصَّلة نماذج اختارتها من الكتاب، تشمل مقدِّمة المؤلِّف، ومجموعةً من التراجم التي ينتمي أصحابها إلى فئتي: الملوك والسلاطين والأمراء، ورجال الدين والإدارة.

وأما القسم الثاني من المختارات فيندرج تحت الرقم (٢٦) من سلسلة «المختار من التراث»، ويضمُّ تراجمَ **لعلماء وأدباء** اختارتها الدكتورة الصباغ من كتاب «خلاصة الأثر» للمحبّي.

وقدَّمتْ أيضًا لهذه المختارات بمقدمة مطوَّلة، تحدَّثتْ فيها أولاً عمّا يُستفادُ من التراجِم التي أوردها المحبّي في الاطلاع على مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، التي كانت سائدة في المجتمع الإسلاميّ في القرن الحادي عشر الهجري. ومن ذلك سموُّ مرتبة العلماء في المجتمع، والاهتمام بالعلوم الدينية واللغوية، إضافة إلى الاهتمام بالعلوم التطبيقية كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء وغيرها.

وأشارتْ الدكتورة الصباغ إلى استنتاجها من هذه التراجم أن علماء ذلك القرن كانوا يتصفون بالمعرفة الموسوعية، مع التركيز على ناحية منها، ولذلك جاء إنتاجهم العلميُّ موسوعيًّا من حيث تناوُلهم مختلف فروع المعرفة[2]، واستقصائيًّا حين يؤلِّفون في مجال اختصاصهم، إذ كانوا يجمعون كلَّ ما قيل في

(١) مقدمة المختار من خلاصة الأثر (٢٥) ص١١٩.

(٢) مقدمة المختار من خلاصة الأثر (٢٦) ص١٥.

المسألة التي يدرسونها، وكلَّ ما ورد في كتب السابقين عنها.

وختمتْ المقدّمةَ المطوَّلة بالحديث عن أهمية الكتاب فقالت: «إن كتاب خلاصة الأثر كنز ثمين من كنوز تراثنا العربي الضَّخم، زاخر بأفانينَ من المعرفة والمعطيات يصعب حصرها. ومن ثم فهو عطاء خصيب من عطاءات الحضارة العربية في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وفي ظلّ مرحلة الحكم العثماني، وهو مصدر لا غنى للباحث في تاريخ العرب، أو تاريخ الأدب العربي، أو في تاريخ الدولة العثمانية، بل وتاريخ العالم الإسلامي، من الاستقاء منه»[1].

ثم عرضتْ بعد المقدِّمة الهامة والمفصَّلة نماذج اختارتها من الكتاب، تشمل مجموعة من التراجم التي ينتمي أصحابها إلى فئة العلماء والأدباء.

* * *

مما سبق تتضح أهمية هذه المختارات في ناحيتين: الأولى عرض التراجم المختارة من كتاب «خلاصة الأثر»، التي تقدِّم للقارئ معلومات عن أصحابها، وتُمكِّنه من التَّواصل مع التراث، والتدرُّب على قراءة نصوصه وفهمها.

والثانية تتمثل في المقدمتين المطوَّلتين اللتين عرضتْ فيهما الدكتورة الصباغ تعريفًا بالكتاب ومضمونه، والمؤلِّف ومنهجه وأسلوبه، ومناحي الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية في القرن الحادي عشر الهجري، إضافة إلى ما قدمته من نقد تاريخي للكتاب وعصر المؤلِّف.

* * *

(١) مقدمة المختار من خلاصة الأثر (٢٦) ص٤١.

سابعًا ـ الجاليات الأوربية
في بلاد الشام في العهد العثماني
في القرنين السادس عشر والسابع عشر
العاشر والحادي عشر الهجريين[1]

هذا الكتاب في الأصل بحثٌ أعدته الدكتورة ليلى الصباغ لنيل درجة الدكتوراه في قسم التاريخ بجامعة القاهرة، بإشراف الدكتور محمد أحمد أنيس. وقد نالت عليه درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٦.

ويُعَدُّ هذا البحث امتدادًا لبحثها في الماجستير «الفتح العثماني لسورية ومطلع العهد العثماني فيها». وقد أرادت من البحثين تسليط الضوء على حقبة مهمة من تاريخ بلاد الشام، ما يزال الكثير من أحداثها يحتاج إلى الدراسة والتنقيب والتحليل والتفسير، وبعضها يحتاج إلى إعادة نظر ومحاكمة موضوعية، بغرض الوصول إلى الصورة الحقيقية الصادقة للأحداث.

ويُشار إلى أن المعلومات التاريخية، في القرنين السادس عشر والسابع عشر وما قبلهما، قليلة ومبعثرة في المصادر العربية والأجنبية، وتحتاج إلى نظرة علمية تكشف الغبار عن هذه الحقبة، وتنتزع التفاصيل من مصادرها، وتُنسِّق تلك المعلومات في خيط فكري واحد، بعيدًا عن التعصب والأهواء.

ولا شكّ أن هذه المهمّة تتطلب ممن يتصدَّى لها أن يبذل جهودًا كبيرة، كما

(١) طبع في مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨٩.

تحتاج إلى محاكمة عميقة ونقدٍ واعٍ للروايات، وخبرة في مجال التأليف وتنسيق الأفكار، ووضعها في قوالب مترابطة، وطرحها بأسلوب مبسَّط، يُتيح للقارئ الإفادة منها على أكمل وجه.

لقد اختارت الدكتورة الصباغ أن تقوم بهذه المهمة، مع ما يكتنفها من صعوبات ومشاقَّ، فجعلَت تسعى وراء المعلومات في المئات من المصادر العربية والأجنبية، والآلاف من الوثائق التاريخية، حتى أخرجت هذا البحث في منتهى الدقة والموضوعية، وحُسن التبويب والترتيب، وعُمق الفهم والإحاطة، وسلاسة الأسلوب والعرض، فاستحقت من الجامعة مرتبة الشرف الأولى، ومن القارئ كلَّ الثناء والتقدير.

ويتألف الكتاب من ثمانية فصول وخاتمة.

ففي الفصل الأول تحدَّثَت عن الأصول التاريخية للجاليات الأوربية في سورية، منذ العصر اليوناني حتى العصر الحديث، والدوافع التجارية والدينية والعسكرية التي كانت وراء وفود الجاليات الأوربية إلى سورية وإقامتها في أرضها.

وتحدَّثَت في الفصل الثاني عن الامتيازات التي أعطاها العثمانيون للدول وللجاليات الأوربية في سورية، وما كان لهذه الامتيازات من آثار تمثَّلت في توافد الأوربيين واستقرارهم فيها، وقيامهم بأدوار خطيرة في مجالات التجارة، ثم التمهيد للسيطرة الاستعمارية الغربية.

وخصَّصت الفصل الثالث لدراسة آثار الامتيازات على سورية، وكيفية تطور هذه الامتيازات من حقوق عادية إلى تدخل في شؤون المنطقة واستغلال خيراتها، وتحقيق المآرب الاستعمارية فيها.

وفي الفصل الرابع ذكرت الأماكن التي أقام فيها الأوربيون في بلاد الشام،

واتخذوها مراكز للتجارة والتبشير بالمسيحية الكاثوليكية. وهذه الأماكن تتوزع بين الشريط الساحلي الذي يضم: الإسكندرية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة، والمدن الداخلية ويأتي في مقدمتها: حلب ودمشق وبعلبك وحمص وحماه والقدس والرملة.

وتحدَّثَت في الفصل الخامس عن الحياة الاقتصادية للجاليات الأوربية في سورية، ودورها في التبادل التجاري بين أوربة وسورية، والمهن التي كان يُتقنها أفراد الجاليات، وتأقلمهم مع الصعوبات التي كانت تُواجه التجارة، وأهم المواد التي كانت تتصدر قائمة التبادل التجاري بين سورية وأوربة.

وفي الفصل السادس تحدَّثَت عن الأساليب الإدارية التي تعتمدها الجاليات في إدارة شؤونها، وتنظيم حياة أفرادها. وهذه النظم والأساليب بعضها وضعته الجاليات انطلاقًا من مصالحها التجارية، والحاجات المعيشية لأفرادها. وبعضها مستوحًى من أنظمة البلاد التي يتبعون لها، مع وجود روابط قانونية وتنظيمية تربط هذه الجاليات بالبلدان الأوربية التي ينتمون إليها. وكان لهذه الجاليات مجالس ومستشارون وحراس وخدم، وهذه المجالس كانت على تنسيق دائم مع قنصليات بلادهم في سورية.

وفي الفصل السابع تحدَّثَت عن الحياة الاجتماعية للجاليات، من حيث أماكن إقامة أفرادها، وموقفهم من الخلافات المذهبية بينهم، وعاداتهم في الزواج والطعام واللباس والحفلات والمناسبات، كما رصدَت العلاقة بين أفراد الجالية الواحدة، وبينها وبين غيرها من الجاليات، وبينها وبين عامة أفراد الشعب بمكوناته العربية والعثمانية والقوميات الأخرى، وبانتماءاته الدينية المتنوعة.

وفي الفصل الثامن تحدَّثَت عن الجاليات الدينية، والفِرَق التي تنتمي إليها،

وعلاقتها بفئات الشعب المختلفة، وما كان بينها من نزاع وتنافس، وما كانت تحظى به من حماية أوربية عن طريق الامتيازات، كما تحدَّثَت عن نشاط هذه الجاليات في فتح المدارس ونشر التعليم والتغلغل بين مسيحيي الشرق لنشر المذاهب المسيحية الغربية بينهم.

وفي الخاتمة تحدَّثَت عن نتائج إقامة الجاليات الأوربية في سورية على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري.

فعلى المستوى الاقتصادي كان للجاليات فضل في تنشيط التجارة والصناعة والزراعة، إذ حملَت معها إلى سورية التطوُّرَ الذي انتشر في بلدانها، كما أسهمت عن طريق التبادل التجاري مع بلدانها إلى تنشيط اقتصاد تلك البلدان.

أما على المستوى الاجتماعي فقد حملت الجاليات إلى سورية بعضَ العادات والتقاليد الأوربية، فكان لها تأثير واسع بين مسيحيي الشرق، وتأثير محدود بين أفراد المجتمع المسلم، الذي كان يتشبث بتقاليده وأعرافه، وينظر إلى التقاليد الأوربية بعين الريبة والاستغراب.

وعلى المستوى الفكري كان لهذه الجاليات تأثير كبير في ظهور نهضة فكرية في سورية وخاصة بين المسيحيين، تجلَّت في ظهور الطباعة وانتشار المدارس ونمو حركة التعليم.

وفي المقابل كان لها دور مهمّ في تعريف الغرب بحضارة الشرق وآدابه وعاداته وتقاليده، وهذا أدى إلى نموّ حركة الاستشراق، والاهتمام بالمخطوطات العربية، وتدريس اللغة العربية واللغات الشرقية في الجامعات الأوربية.

أما على المستوى السياسي فقد كان للجاليات أثر سلبيّ على سورية، تجلَّى في المطامع الاستعمارية، والتنافس بين الدول الأوربية للحصول على النفوذ

فيها، ويُمكن القول إن الجاليات مهَّدت لظهور الاستعمار في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ويتألف الكتاب من مجلَّدين، ويشغل (١٠٧٤) صفحة، وينتهي بفهرس يحوي المصادر والمراجع التي تتضمن: الوثائق، والمؤلَّفات العربية والتركية والأجنبية، وما دوَّنه السيّاح الأجانب عن سورية في رحلاتهم.

ولعلّ هذه القائمة المطولة من المصادر والمراجع تشهد بمدى الجهد المبذول في تأليف الكتاب، ومدى دقة المؤلِّفة وتمكُّنها من البحث والتنقيب عن المعلومات، بعد استقراء شبه تامّ لمصادرها، كما تدلّ وفرة المصادر وتنوعها على أن البحث نال قسطًا عظيمًا من الموضوعية، والمحاكمة العلمية السديدة.

ولتسهيل الإفادة من الكتاب وضعت له المؤلِّفة فهرسًا بأسماء الأعلام والأحداث والمصطلحات واللغة، مع وجود خرائط تاريخية لحوض البحر المتوسط، والجزيرة العربية، تُساعد على توضيح الأفكار واستيعابها.

ولعل هذا الكتاب، وكتاب «منهجية البحث التاريخي»، يُعبران أصدق تعبير عن منهج الدكتورة الصباغ في التأليف، وما يتصف به هذا المنهج من حسن الترتيب، وبراعة التبويب، والدقة في اختيار العناوين، والبساطة في العرض، والسلاسة في الأسلوب.

* * *

ثامنًا ـ نساء ورجال
في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع[1]

يُشبه هذا الكتاب في مضمونه كتابَ «من الأدب النسائي المعاصر»، الذي سيأتي الحديث عنه، إذ يُعدُّ حلقةً في مجال «التراجم والسِّيَر»، ويتميَّز باحتوائه سِيرًا لرجالٍ ونساء، على حين لا يضمُّ الكتابُ الآخر إلا سِيَرَ النساء.

ويتشابه الكتابان في انتقاء الشخصيات التي تركت أثرًا واضحًا في الحضارة الإنسانية، كما يتشابهان في الأسلوب الأدبي وطريقة العرض المشوِّقة، ويُمكن القول: إن أسلوب الدكتورة الصباغ وطريقتها في عرض الأفكار والمعلومات التاريخية، في الكتابَين، يُؤلِّفان طريقة فريدة في مجال التأليف التاريخي، ونموذجًا متميِّزًا في مجال التراجم، يُمكن تسميته بـ«فنّ التراجم والسِّيَر»، إذ لا يقلّ التزام الكاتبة بالأسلوب الأدبي والعرض المشوِّق عن التزامها باستقصاء المعلومات التاريخية، والتحرِّي الدقيق عن الحقائق من مصادرها الموثوقة، إلى درجة أن القارئ يشعر بالمتعة وهو يُطالع المحطات الهامة التي مرَّت بها الشخصيات المترجَم لها، كما يشعر بالتشوُّق للمتابعة والتفاعل مع الأحداث والحقائق، بحيث لا يستطيع أن يتوقَّف عن القراءة حتى يُتمَّ الترجمةَ كاملةً.

وقد وصفَت الدكتورة الصباغ طريقتها في عرض التراجِم في مقدمة الكتاب بقولها: «ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنها لم تُعالَج بالأسلوب التاريخي

(١) من منشورات جمعية الندوة الثقافية النسائية بدمشق ١٩٩٥.

الأكاديمي، الذي قد يحمل بعض جفاف وجفاء، وإنما بأسلوب أدبي، وإن كان هذا الأسلوب لم يُخرجْها عن حقائقها التاريخية»[1].

والغرض من هذا الكتاب، كما يبدو في مقدمته، تسليط الضوء على شخصيات فاعلة في تاريخ الإنسانية، جديرة بأن تُتّخذ قدوةً ومثلاً أعلى في طريق العطاء والعلم، تقول: «إن تراجم الشخصيات الفاعلة في تاريخ الإنسانية لا تَبلى، ولا يُصيبها التَّقادُم... وهي بسِيَرِها وأنواعِ فعاليّاتها تُعطي للتاريخ معناه الإنساني، وتُقرِّبه من أفهام الناس وتُحبِّبه إليهم، وتُغذِّي ذواتهم وتُغنيها، فهي الدفق الحياتيّ المُجدِّدُ والمتجدِّدُ، وهي القدوة والعبرة والحافز والأمل. وقد أدرك مؤرِّخونا العرب هذه السِّمات بعمق عندما أكثروا من كتب التراجم»[2].

والشخصيات التي ترجمت لها الدكتورة الصباغ في كتابها هذا هي:

أولاً- رابِنْدرانات طاغور(١٨٦١-١٩٤١):

وهو أديب هندي نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩١٣، ولقَّبَه الزعيم الهندي المهاتما غاندي بـ«منارة الهند الدائمة».

عُرف عنه تعمُّقُه في الشعر الوجداني وشعر الطبيعة، وكان يُمثِّل عند الهنود أحدَ قادة الفكر الاجتماعي والنفسي والسياسي.

زار كثيرًا من بلدان الغرب، ونهل من جميع الثقافات، ثم صبَّ في قوالب الشعر عُصارةَ تجاربه وفلسفاته ووجدانه، وترك أثرًا بارزًا في حركة الفكر العالمية، وبصمة خالدة في صفحات الحضارة الإنسانية.

وقد تناولت الدكتورة الصباغ شعرَه بالتحليل والدراسة، رابطةً بين

(١) نساء ورجال ص١٢.

(٢) نساء ورجال ص١٣.

أفكاره وتفاصيل حياته، وأهم المحطات التي ساهمت في ولادة مواقفه وأفكاره واتجاهاته الشعرية والفلسفية.

ثانيًا- الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان:

وهو الخليفة الأموي الخامس، تسلَّم الخلافة بعد أبيه مروان بن الحكم سنة «٦٥ هـ»، واستمرّ في الخلافة واحدًا وعشرين عامًا.

عُرف بالحزم والصرامة ومعرفته بطبائع البشر، وكان واسع العلم والثقافة في الفقه والأدب والأخبار، بعيد النظر فيما يخصّ الخلافة وبناء الدولة، صبورًا على أعباء الحكم، لا تهزُّه الحوادث مهما عظُم وقعها واشتدّت نارها.

وقد تحدَّثَت الدكتورة الصباغ عما تعرَّض له هذا الخليفة من ضغوط وتمرُّد وانتفاضات وحروب، ثم استطاع بسياسته وسيفه وحلمه وصبره أن يقبض على زمام المواقف، وأن يجعل الدولة تقف وحدةً متراصّة في وجه الأخطار المحيطة بها.

ولم تشغله الحروب التي خاضها عن الاهتمام بالجانب الثقافي والاقتصادي والإداري، فعمل على نشر رسالة الإسلام، وتعريب الدواوين والنقد، وجعل من الدولة الأموية بحقّ دولةً عربيةَ الثقافة والانتماء والإدارة.

ثالثًا- الخليفة العباسي هارون الرشيد:

وهو خامس خلفاء بني العباس، تسلَّم الخلافة بعد أخيه الهادي سنة «١٧٠ هـ»، واستمرت خلافته إلى سنة «١٩٣ هـ»، ويُعدّ عهده كما تقول الدكتورة الصباغ: «فترة التألُّق الحضاري العربي الإسلامي، بعطائه العلمي والفني السَّخِيّ، وبتأجُّجه الحياتي، وتلوينه الفكري، الذي تحوَّل إلى ثمار ناضجة في الحقبة التي تلت»[1].

(١) نساء ورجال ص٧٨.

وقد تناولت الدكتورة الصباغ سيرةَ هذا الخليفة، وأهمَّ الإنجازات في عهده، وردَّت على الروايات والأخبار التي أساءت رسمَ شخصيته، وأسرفَت في تصوير ميوله وأهوائه، وانتهت إلى أن دولته كانت «من أحسن الدول، وأكثرها وقارًا ورونقًا وخيرًا... وأوسعها رقعةَ مملكة... وكان هو ذاته فاضلاً شاعرًا راويةً للأخبار والأشعار والآثار، صحيحَ الذّوق، مهيبًا عند الخاصة والعامة. كان يحجّ سنة ويغزو أُخرى، ويُصلِّي في كل يوم مئة ركعة... وقد حجَّ ماشيًا ولم يحجّ ماشيًا خليفةٌ غيرُه»[1].

رابعًا- الشهيد نور الدين زنكي:

هو الأمير الذي نذر نفسَه للجهاد، وُلد في حلب سنة «٥١١هـ»، وتربَّى في كنف والده عماد الدين زنكي تربيةَ صلاح وتقوى، ونال ثقافة عصره الدينية، وعاش أحداث زمانه بإدراك المتبصِّر، ووعي السياسيّ العميق، وشجاعة المحارب المجاهد، وجعل أمنيته طرد الفرنجة من بلاد الشام.

وقد أمضى ثمانيَ وعشرين سنة، وهي مدة حُكمه (٥٤١- ٥٦٩هـ) في محاربة الفرنجة، وتوحيد البلاد العربية، ورعاية العلماء، وبناء المدارس والمساجد، ونشر العدل بين الناس، والوقوف على حوائجهم.

وإليه يعود الفضل في توحيد البلاد العربية، وانتصار خليفته صلاح الدين على الفرنجة.

تقول الدكتورة الصباغ: «فإذا مررتَ وأنت تتجوَّل في دمشق القديمة، قرب سوق الخياطين، وشارفك ضريحُ نور الدين، فقف بخشوع أمامه، واذكر أنه كان حاكمًا صالحًا، وبطلاً أنقذ يومًا دمشقك... من براثن الفرنجة

(١) نساء ورجال ص٨٣- ٨٤ نقلاً عن كتاب «الفخري في الآداب السلطانية».

الصليبيِّين، وقطع عليهم بذلك طريقَ اجتياح عالَك العربي كلّه، وغرس بذور وحدتك التي تُجاهد لتحقيقها اليوم»[1].

خامسًا- سميراميس ملكة بابل وآشور:

وهي الملكة التي نُسِجَت حولها الأساطير والحكايات، وحكمَت بابل بين عامَي (٨١٠- ٨٠٦ ق.م)، وإليها يَنسب المؤرِّخون كثيرًا من الإنجازات العسكرية والحضارية كبناء الحدائق المعلَّقة.

وقد تحدَّثَت الدكتورة الصباغ عن سيرتها وإنجازاتها، مستندةً إلى حقائق تاريخيّة مشوبة بالحكايات والأساطير، وانتهت إلى القول:

«إن كونها ملكةً على آشور وبابل أمرٌ لا شكَّ فيه، وقد وُجد نصبٌ باسمها في نينوى. ولكن يبدو أن ما نُسب إليها من أعمال يبقى مشوبًا بالخيال، ولا سيما أن الأدباء الغربيِّين في العصور الحديثة قد أضافوا إلى الخيال خيالاً. وهكذا تبقى الحقيقة تائهةً في تلافيف الأسطورة، وتنتظر إثباتَ المخلَّفاتِ الأثرية الملموسة ونصوصها»[2].

سادسًا- ملكة اسكوتلندة ماري ستيوارت (١٥٤٢- ١٥٨٧):

وُلدت عام ١٥٤٢ ووالدها جيمس الخامس يُعالج سكرات الموت، وأصبحت في اليوم السادس من عمرها ملكةً على اسكوتلندة بعد وفاة والدها.

وتفيض سيرتها بمحطات الحزن والألم، إذ عاشت حياتها ضحيةَ صراع طويل بينها وبين الطامعين بتاجها، كملك فرنسة وملكة إنكلترة، والمتسلطين على مملكتها من نبلاء اسكوتلندة ورجال الدين.

---

(١) نساء ورجال ص٩٦.

(٢) نساء ورجال ص١٠٦.

وانتهت حياتها أخيرًا بالإعدام على يد ملكة إنكلترة «إليزابيت» ابنة «هنري الثامن». تقول الدكتورة الصباغ: «لقد خلَّدها التاريخ وجهًا من أبرز وجوهه المناضلة من أجل العرش والسلطة، وخلَّدها الأدب أيضًا فكانت محورًا لعدد من الروايات والمسرحيات أشهرها التي كتبها الشاعر الألماني شيلر»[1].

سابعًا- فلورنس نايتينغل (١٨٢٠- ١٩١٠):

وهي ممرضة إنكليزية، وُلدت في إيطالية عام ١٨٢٠، واختارت مهنةَ التمريض لتؤدِّي رسالةَ الرحمة والتعاطف مع آلام الإنسانية.

وقد عُرفت بالمرأة ذات المصباح، لأنها كانت تحمل المصباح في الليل وتطوف على غُرَف المرضى وأسِرّتهم. وقد تنقَّلَت في بلدان كثيرة، وهمُّها أن تُقدِّم الخدمةَ الطبية للمرضى والجرحى من الجنود الذين كانوا يُحاربون في أنحاء الإمبراطورية الإنكليزية، وخاصة في شبه جزيرة القرم.

وبسب حرصها على أداء رسالتها رفضت الزواج، وتقول في إحدى مذكراتها عام ١٨٥٠: «لقد بلغت الآن الثلاثين من العمر، تلك السّنّ التي ابتدأ فيها المسيح بالتبشير برسالته... فلا أشياء طفولية بعد الآن، ولا أشياء تافهة، ولا حبٌّ أرضيّ ولا زواج»[2].

وتنقل عنها الدكتورة الصباغ آخر ما قالته قُبيل وفاتها، إذ سألتها صديقتها وهي تلفظ أنفاسَها الأخيرة: هل تعرفين أين أنتِ يا فلورانس؟ فأجابتها: «إنني هنا أرقب مذبح الإنسانية وآلامَها، وألمس أوتار الحياة وحقائقها، وطالما أنا على قيد الحياة فإنني سأناضل من أجل إنقاذ هؤلاء الرجال الذين يندفعون إلى

(١) نساء ورجال ص١٢٨.

(٢) نساء ورجال ص١٣٣.

مذبح المصالح والشهوات بقوى عقولهم المادية، واندفاع عواطفهم الثائرة»[1].

ثامنًا- كاترين برشكوفسكي (١٨٤٤- ١٩٣٤):

وهي امرأة روسية لُقِّبَت بـ«جدة الثورة الروسية الكبرى»، نذرت نفسها لمحاربة العبودية والظلم والاستغلال تحت حكم القيصر، وفي ظل سيطرة النبلاء الإقطاعيِّين على الموارد الاقتصادية في روسية.

وفي سبيل سعيها لتحقيق العدالة على الأرض ضحَّت بزواجها وحياتها الأرستقراطية، واختارت أن تعيش مع الفلاحين في الحقول وبين المستنقعات، لتبثَّ فيهم روحَ الثورة والكرامة والتمرُّد، فتعرَّضَت للسجن والنفي مرات كثيرة، إلى أن قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ فاستبشرت بأن آمالَها على وشك أن تتحقَّق، ولكن فوجئت بنَفيها أيضًا إلى تشيكوسلوفاكية، فأنشأت فيها مدرسة لتعليم الأطفال الفقراء إلى أن فارقت الحياة عام ١٩٣٤.

وتختم الدكتورة الصباغ حديثها عنها بقولها: «وعندما أغمضَت عينيها للموت عام ١٩٣٤ في تشيكوسلوفاكية كانت تظنُّ أن فجر عالمٍ جديد قد انبثق، عالمٍ تتَّحد فيه قوى الخير لدى جميع الأمم لتُحطِّم الطغيان والاستبداد والاستعباد... ولكن لو قُدِّر لها أن تحيا حتى هذه الساعة لرأت أن البشرية التي تدَّعي التحرُّر والعدالة لا تزال تعيش في عبودية ذاتها ومطامعها. ومن ثَمَّ فإن إنسان الكفاح، من أجل القِيَم الفطرية الجميلة، كالحرية والعدالة والحياة الكريمة الحقة سيبقى، بل يجب أن يبقى ما دامت البشرية قائمة»[2].

---

(١) نساء ورجال ص١٣٨.

(٢) نساء ورجال ص١٤٥- ١٤٦.

تاسعًا- فرانسيس فيلار (١٨٣٩- ١٨٩٨):

وهي امرأة أمريكية «كافحَت بكل طاقاتها الإنسانية لرفع مستوى الفرد المتدنِّي، وعملَت من أجل الإنسان، وسعادة البيت»[١].

وقد انتسبَت إلى عدة جمعيات تعمل في مجال الإصلاح الاجتماعي، وعملَت في حقل التعليم في كلية بيتسبورغ للبنات، ثم ترأَّسَت كلية إيفانستون للبنات، فكانت تسعى مع التعليم إلى تبصير نساء أمريكية بعيوب الواقع، وتصوِّر لهن الطريق الموصل إلى المستقبل المنشود.

زارت معظم أنحاء أوربة، وتنقَّلَت في كل المدن الأمريكية، داعيةً إلى إنقاذ الإنسان من المُسكرات والمخدِّرات، والارتقاء به إلى الحياة الأسمى. واستمرت في كفاحها إلى حين وفاتها، وبقيَت في أذهان العالَم نموذجًا «من نضال المرأة للارتقاء بالمجتمع، وصورةً من قدرتها على التغلغل الروحيّ للقضاء على ظلمةِ النفس، وتنقية الإنسان»[٢].

عاشرًا- سوزان أنطوني (١٨٢٠- ١٩٠٦):

امرأة أمريكية نذرَت حياتَها للمطالبة بحقوق المرأة، إذ كان القانون الأمريكي في عصرها «قد جعل المرأةَ في وضعٍ متدنٍّ وغير مشرِّف. فبحسب هذا القانون: كلُّ امرأة هي قاصر، ولا يُمكنها أبدًا أن تصل إلى مرحلة النضوج القانوني، فإذا كانت متزوجة فهي ملك لزوجها، وإذا بقيت عازبةً كانت ملزمةً بتسليم أملاكها إلى حارس من الرجال، ولا يجوز لامرأة متزوجة أن تُقاضي في المحكمة لفسخ عقدٍ، أو للاحتفاظ بأجورها التي تكسبها من عملها، أو

(١) نساء ورجال ص١٤٨.

(٢) نساء ورجال ص١٥٤.

لحصولها على تعويض مقابل أذًى أصاب به أحدُهم شخصَها أو شخصيّتها، ففي كل حالة الزوج هو دائمًا المستفيد، وهو لم يكن المتحكِّم الوحيد في قدرها، وإنما مالك أطفالها أيضًا... وكان يُسمح للرجل بضرب زوجته وأطفاله وكلبه، ولا يجوز للمرأة أن تُطلِّق زوجها حتى في حالة قسوته تجاهها»[1].

وقد أسست سوزان أنطوني عددًا من الجمعيات النسائية، وانضمَّت إلى بعض الجمعيات التي كانت قائمة، وتزعَّمَت الحركة النسائية في أمريكة، وتابعت بتصميم منقطع النظير مطالبتَها بحقوق المرأة وحريتها، حتى لُقِّبَت بـ«نابليون الحركة النسائية»، واستطاعت بنضالها وإصرارها استصدارَ قوانين في بعض الولايات تمنح المرأة حقَّ التصويت، وبعضًا من حقوقها، إلى أن تمّ تعديل الدستور الأمريكي لهذا الغرض عام ١٩٢٠، بعد أربع عشرة سنة من وفاتها.

حادي عشر- جين آدامز (١٨٦٠- ١٩٣٥):

فيلسوفة اجتماعية أمريكية نذرت حياتها «لنشر السلام العالمي، وفتح باب الحياة الكريمة لتلك الطبقة العمّالية المنبوذة من المجتمع الرأسمالي»[2].

وقد قرَّرت أن يكون ميدان عملها مدينة شيكاغو، التي «ضمَّت في جوفها شتى الجنسيات الأوربية الشرقية والغربية، وحمل أفراد هذه الجنسيات معهم اختلافَ دولهم وتعصباتها... فنبوا عن المجتمع الأمريكي، وعاشوا متنافرين متباغضين»[3].

وقد صبَّت جين آدامز جهدَها على أن تجعل من هذا المجتمع المنقسم مجتمعًا إنسانيًّا منسجمًا، ليكون نواةً لمجتمع إنساني منسجم، فابتدعَت فلسفةً

(١) نساء ورجال ص١٦٠.

(٢) نساء ورجال ص١٦٩.

(٣) نساء ورجال ص١٧٢.

جديدة هي «فلسفة الخدمة الاجتماعية»، فأنشأت منزلاً صغيرًا تحوَّل فيما بعد إلى مركز كبير، وفيه كانت تقدِّم الطعام للجائعين، والدواء للمرضى، والمال للمحتاجين. وافتتحت حضانةً وروضة للأطفال، فكانت تعلِّمهم وتُطعمهم وتُسلِّيهم مقابل خمسة سنتات في اليوم.

ودرسَت أيضًا مشكلةَ عمل الأطفال واستغلالهم، فبنت لهم الملاعب العامة ونظَّمَتها، ونجحت في عام ١٩٠٣ باستصدار قانون يُحرِّم تشغيل الأطفال تحت سن السادسة عشرة، من السابعة مساءً وحتى السابعة صباحًا.

واستطاعت بجهودها أن تُنقذ الأطفال من مخالب التعاسة، وأن تُؤسس بفلسفتها لإزالة الفوارق والتنافر بين أفراد المجتمع، وتحقيق الإنسانية الواحدة المنسجمة والمتناغمة.

ثاني عشر - إيفانجلين بوث (١٨٦٥ - ١٩٥٠):

وُلدت في بريطانية، وكان والدها من رجال الدين، وقد أوجد جيشًا من المتطوعين سُمِّي «جيش السلام والإنقاذ»، مهمته البحث عن الإنسان الغارق في الخطايا، وتطهيره وتحويله إلى إنسان يبحث بنفسه عن الخاطئين لإنقاذهم وتخليصهم.

وقد أسند إليها والدها قيادة جيش الإنقاذ في لندن، ثم انتقلت إلى كندا لتقود الجيش هناك، ثم عبرت الحدودَ إلى أمريكة لتُزاول عملها في هذا العالم الجديد. فالتحق بجيشها آلاف الأمريكيِّين، وانتشرت دعوتها وجيشها في كثير من بلدان العالم، «وكانت حياتها صورة من صور الحياة الإنسانية الحركية الحقّة»[1].

* * *

(١) نساء ورجال ص١٨٦.

لقد ضمَّ الكتاب، كما تبيَّن من عرض محتواه، سِيَر كوكبة من الرجال والنساء كان لهم إسهام واضح في الحضارة الإنسانية، بذلوا حياتهم وجهودهم من أجل سعادة الإنسان ورقيّه الخلقي والحضاري، فكانوا قدوةً ومثلاً لكل مَن يسير في طريق العطاء والتضحية.

* * *

تاسعًا- من الأدب النسائي المعاصر
العربي والغربي[1]

يضمُّ الكتاب، كما جاء في مقدّمته، سِيَر كوكبةٍ من النساء، لَمَعْن في ميدان الأدب، نثره أو شعره، في القرنين التاسع عشر والعشرين، تلك المرحلة التي أخذت فيها المرأة العربية والغربية تُمزِّقُ حُجُبَ العُزلة التي فُرِضَت عليها، وانطلقت تُعبِّر بحرية عن ذاتها ومجتمعها، وتسعى بثقة وكفاح عنيد لتتبوَّأ موقعها الطبيعي في الحضارة الإنسانية المعاصرة[2].

والأديبات اللواتي تحدَّثت عنهن في كتابها هن:

١- الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان.

٢- الشاعرة العراقية نازك الملائكة.

٣- الشاعرة الإنكليزية إليزابيت باريت براوننغ (Elizabeth Barrett Browning).

٤- الشاعرة والروائية الإنكليزية شارلوت برونتي (charlotte bronte).

٥- الأديبة والكاتبة الأمريكية هيلين كيلر (Helen Adams Keller).

٦- الروائية الأمريكية بيرل سيدنيستريكر باك (Pear Sydenstricker Buck).

وقد ركَّزت الدكتورة الصباغ في كتابها هذا على عبقريات نسائية تفجَّرت في هذا العالم، ولمعت نجومها في آفاق الإبداع، مع وجود تحدِّيات صعبة، وطريقٍ

(١) من منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٩٦.

(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص٧.

وعرةِ المسالك. وكأنها تريد من وراء ذلك أن تهمس في أذن الإنسان العربي عامة، والمرأة العربية خاصة، أن الحياة سوف تتسع لذوات الطموح، وأن الدنيا سوف تبتسم لكل مَن تطرق بجهدها وعملها أبواب الفكر والإبداع.

أرادتْ أن تعلِّم المرأة العربية أن تُقابل التقاليد الصارمة بالعمل والعلم والاجتهاد، وأن تتغلب على ضيق البيوت بسَعة الفكر، وأن تنتصر على صلابة الجدران وارتفاعها بأجنحة الخيال، وأن تُواجه الظلمَ بأشعة الأمل، وأن تجرف من أمامها كثبان الرَّمل بنسمات العاطفة، وأن تزيل أشواك الدروب بنار التصميم، وأن تزيح الصخور القاسية بجبروت العقل.

عرضتْ لنا الدكتورة الصباغ سِيَرَ كوكبة من النساء، تعلَّقنَ بأجنحة النسور، ووصلنَ إلى قمم العبقرية. ولم يَفُتها أن تربط بين بدايات الرحلة ونهايتها، بين المعاناة وحرارة الدموع في البدايات، وبين المجد والشهرة والتألُّق في النهاية، بين بطون الأودية التي خرجنَ منها والذُّرا الشاهقة التي ارتقينَ إليها، وهي تريد من وراء ذلك أن تزرع في نفوس النساء الأمل والصبر والطموح.

تحدَّثت في البداية عن صديقتها الشاعرة **فدوى طوقان**، التي نبتت في حدائق الشعر زهرة فواحة، يعرفُ عبيرها أبناء فلسطين والعالم العربي. ولكننا ننظر كعادتنا إلى الزهرة المتفتحة بإعجاب، ونشم عطرها بنشوة، وننسى وربما لا ندري كم تُعاني الوردة من ثِقَل التراب قبل أن تُصافح النور! وكم تصفعها الرياح قبل أن تنتصب وتعلو! وكم يُداهمها الذُّبول ويطوف حولها الموتُ وهي ترتقب عطاء السماء!

لقد فاجأتنا الدكتورة الصباغ وهي تصوِّر لنا معاناة الشاعرة من التقاليد الظالمة والمرض والحرمان، بأسلوب تجيش فيه العاطفة، وتنساب فيه الكلمات،

وتتعانق فيه الصُّوَر مع ألوان النَّفس وهمسات الوجدان.

فقد وُلدت فدوى طوقان في نابلس، ووالدها سيِّد في محيطه، لا يجد وقتًا لأولاده، وأمُّها وَلودٌ لا تلتفت إلى فرديّة أطفالها، ورغباتهم، وأسرتها كبيرة لا مكانَ فيها للصغار، ولا أحد يستمع إلى أحلامهم وأمنياتهم[1].

وُلدت الشاعرة وخزائنُ الحنان مقفَلة أو فارغة، ومرض الملاريا ينهش طفولتَها، وينقضُّ على صباها. وتبلغ الثالثةَ عشرة من عمرها، فتحرمها تقاليدُ الأسرة من متابعة التعليم خوفًا من عار محتمَل، وتقبعُ في زوايا البيت بعيدًا عن كتبها ومدرستها، بعيدًا عن قطرات العطف، بعيدًا عن النور الذي يبرقُ خارج جدران المنزل، فلا عجب أن نسمعَ من شعرها نحوَ قولها:

فهنا خيالٌ شاحبٌ لم ترحمِ الدُّنيا ذُبولَهْ
وهنا خيالُ طفولةٍ لم تَدرِ ما مرحُ الطُّفولهْ

وأمام هذا الواقع المرِّ لم تستسلم الطفلةُ لليأس، بل ظلَّت تُجاذِبُ الحياةَ خيوطَ الأمل، إلى أن أطلَّ عليها من كوّةٍ مجهولةٍ في جدارِ الزَّمن، إذ التفتَ إليها أخوها الشاعر الكبير إبراهيم طوقان، وجعلَ يعلِّمها الشِّعرَ، حتّى وصلت إلى مرتبة سامقة فيه، وشعَّت نجمةً جديدة في سمائه لن تغيب.

ونازك الملائكة شاعرةٌ عراقيّة عبَّرت في أشعارها عن تدفُّق العاطفة، وحرارة الشعور، وضمَّنت تلك الأشعارَ نظرتَها إلى الحياة، وتأمُّلاتها في الطبيعة، وفلسفتَها التي حاولت فيها أن تفسِّرَ لنا الوجودَ، وما ينتظرنا في سراديب الغيب خلف هذا الوجود، وجعلَت من أشعارها قيثارةً تنطلق من أوتارها نغماتُ حزنٍ غامضٍ، وخلجاتُ روحٍ يائسةٍ، وطوفانٌ عاطفيٌّ مفاجئ

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٢٠.

يُشبه فيضانَ دجلةَ حين يغضب ويملُّ من السير البطيء.

عرفنا نازك الملائكة من شعرها، وهي تعشق الظَّلامَ، وتنشد أشعارها للجبال، وتحبُّ الحياةَ مع أنها تُدرك أن الموتَ يرتع في ضفافها، وتهوى الحلمَ مع أنها تثور على أحلام الناس، ويجذبها القمر والنجوم إلا أنها جامدة لا تتحرَّك، وتتطلَّع إلى السماء مع أنها معذَّبةٌ تُكوى بالأسى، وترتجف من صدمات السنين.

وعرفنا نازك رائدةً من روّاد التجديد في الشعر العربي، إذ ثارت على نظام الرَّتابة في الشعر التقليديّ، ودعت إلى التحرُّر من قيود الأوزان الموروثة، وضيق القافية الواحدة، وابتكارِ الأوزان الجديدة، وتوليد المعاني، وتنمية اللغة بالحسّ المرهَف والاشتقاق الخصيب، لتغدوَ القصيدةُ كأنها جوقة موسيقية، تتناغم فيها المعاني والألحان والأحاسيس، لتعبِّرَ عن واقع النفس الإنسانية في انفعالاتها الشعورية واللاشعورية.

لقد رصدَت لنا الدكتورة الصباغ، في حديثها عن نازك الملائكة، صورةَ هذه الشاعرة كما ارتسمت في ميادين الأدب والنقد، ولكن كعادتها تُفاجئنا بالغوص في تفاصيل حياتها، باحثةً عن السّر الذي كان وراء ولادةِ عبقريتها، وتكوُّنِ اتجاهها الأدبي، ونزوعها نحو الكآبة والسّوداويّة في شعرها.

وترى الدكتورة الصباغ أن عبقرية نازك ترجع إلى ولادتها في بيت علم وثقافة، فوالدتها مرهفة الشعور تقول الشعر بعفوية وانطلاق، ووالدها مُجاز في اللغة العربية، ويعمل مدرّسًا في بغداد. وقد نهلت من والديها ومدرستها ومطالعاتها، ثم غادرت إلى الولايات المتحدة، ونالت درجةَ الماجستير، وعادت برصيد ثقافيّ واسع.

أما سرّ الكآبة والسوداوية في شعرها فقد ذكرت الدكتورة الصباغ أن

الشاعرة «عاشت تجربة حبٍّ غذّته بكل طاقات نفسها الخيرة، التوّاقة إلى الأعالي، وبعد خمس سنوات من حبٍّ هذا نوعه تبدأ الهزة العنيفة في شخصيتها، ولم تكن الهزة حبًّا جديدًا، وإنما انهيار الحبّ السابق، ولا يُعرَف في الواقع دقائق ما حدث، وإنما يُعرف فقط بأنها صُدمت في حبِّها، وغدرَ بها الحبيب»[1].

ومنذ ذلك الوقت اصطبغ شعرها بالحزن والكآبة والسوداوية، على نحو قولها مخاطبةً شاعرها الذي عاشت معه تجربة الحب:

حُبِّـي الإلهـيُّ النقـيُّ ظلمتَـهُ ... ووفـاءُ روحـي الـشاعريِّ العابـدِ
قلبـي الرقيـقُ أسـأتَ فهـمَ حنينِـه ... ونـشيدُ أحلامـي وروحُ قـصائدِي
لم أدرِ مـــاذا كـــان إلا رعـــشةً ... في روحـيَ الـوَلْهى وقلبـي الـشاردِ
وخلا المكانُ وعدتُ أسألُ وحشتي ... عـن طيفِـكَ النّاسي وحبّـي الخالـدِ
وَهمِـي يـصوِّرُ لي خطـاك ووقعَهـا ... فإذا أصختُ صحوتُ من أحلاميا
لا شيءَ غيرُ الرّيحِ تعصفُ في الدُّجى ... لا شيءَ غـــيرُ تنهُّـــدي وبكائيـــا

وتنتقلُ بنا الدكتورة الصباغ إلى أوربة، وبالتحديد إلى إنكلترة، لترسم لنا بكلماتها الرائعة، وحبِّها الإنسانيّ الفريد، سيرةَ الشاعرة «**إليزابيت باريت براوننغ**»[2]، التي رفعها النقّادُ إلى مرتبة عالية في الشعر، فذهبوا إلى أن شعرها يأتي بعد شعر شكسبير، بل ذهب بعضُهم إلى أنها تفوَّقت في قصائدها الوجدانية على شكسبير نفسه.

وكعادة الدكتورة الصباغ لا تكتفي بأن تنظر إلى النسر وهو يُعانق القمم، بل ترصد حياتَه منذ أن صافحَ الدنيا، وكان الزَّغَب الأبيضُ يُغطّي أجنحته

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص٦٩.
(٢) من الأدب النسائي المعاصر ص١٠١.

المرتجفة، وقلبه يكاد ينفطر خوفًا من حركةٍ خاطئة تهدِّده بالسقوط والنهاية. ولهذا قصَّت علينا تفاصيلَ حياة إليزابيت، وما اعترضها من صعوباتٍ ومصائبَ استطاعت أن تتغلب عليها، وأن تصل إلى المجد والشهرة والنجاح.

لقد كانت إليزابيت مريضةً تُلازم الفراشَ ولا تستطيع الحركةَ، وكان والدها «مستر باريت» شديدَ الغيرة على أبنائه، ولا يسمح لأحد بزيارتهم، وكان يعطف على إليزابيت، لكنه كان يمنعها من قراءة بعض الكتب، والاختلاط بالأصدقاء، لقناعته بأن الحبَّ والقراءة دون رقابة كلاهما يُفسد الإنسان.

وأخيرًا دخلت شخصية الشاعر «روبير براوننغ» إلى حياتها، عن طريق الرسائل أولاً، ثم اللقاء، ثم الهروب إلى إيطالية والزواج. وأنجبت منه ولدًا، واستطاعت بفضل الحبّ والعلاقة الزوجية المتميّزة أن تتغلَّب على مرضها، وأن تهجر سريرها، وأن تترجم عواطفها وعالمها الداخليّ وحبَّها العظيم إلى أشعار نالت ثناء النقّاد والقُرّاء، وسوف تبقى تلك الأشعار تحكي حكايةَ حبٍّ لم تشهد الإنسانية مثله.

وفي إنكلترة أيضًا تستوقفنا الدكتورة الصباغ مع عبقرية نسائية أخرى هي عبقرية «**شارلوت برونتي**»، الكاتبة الروائية التي قال عنها الناقد «سيدني دوبل»: «لقد كانت عميقةً عمقَ الحياة، شفّافة في أسلوبها شفافية الهواء، جمعت العقلَ والأحلام، وبذلك انسجمت مع عصرها، عصرِ الوثبات الفكرية، والثورات الروحيّة»[1].

وتقصُّ علينا الدكتورة الصباغ سيرةَ حياتها، فإذا بها تفقد أمَّها وهي بنت خمس سنوات، وتعيش حياة زهدٍ وتقشُّف فرضتها عليها وعلى إخوتها المبادئُ

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص١٤١.

الكالفنية التي كان يؤمن بها والدها. ثم تموت أختها الكبرى «ماريا»، ويقع عليها عبء الإشراف على إخوتها وتعليمهم.

لقد كانت تعيش مع إخوتها في عزلة عن العالم، بين الأوراق وجدران البيت والطبيعة. ثم أرسلها والدها في الرابعة عشرة من عمرها إلى مدرسة «رو الرئيسة» فدرست فيها، ثم أصبحت بعد سنتين مدرِّسةً فيها، لكن ميلها الأدبي لكتابة القصة جعلها تترك المدرسة، وتلتحق وأختها «إميلي» بمدرسة «مستر هيغير» في بروكسل، في السادسة والعشرين من عمرها.

وتشاء الأقدار أن تتعلَّق بالسيد «هيغير» صاحب المدرسة، فتحبُّه مع أنه متزوّج وله خمسة أولاد، وهذا الحبُّ الذي ولد ميِّتًا كان له تأثير كبير على حياتها، إذ لم يكترث بها السيد «هيغير»، وعادت إلى إنكلترة لتُمضي بقيةَ حياتها في بيت والدها، تكتب القصص والروايات، قبل أن تتناولها يد الموت في عام ١٨٥٥ وعمرها ٣٩ سنة.

وتأخذ بيدنا الدكتورة الصباغ هذه المرة إلى الولايات المتحدة، لتقصَّ علينا بأسلوب أدبي مشوِّق، قصةَ الأديبة الكبيرة «**هيلين كيلر**»، التي عُرفت بالمرأة المعجزة. فقد وُلدت هذه الأديبة عام ١٨٨٠، ثم أصابها بعد ولادتها بعشرين شهرًا مرضٌ أفقدها الرؤية والسَّمع والكلام، وأفقد والديها أيَّ أملٍ لها في الحياة. وأيُّ أملٍ - كما تقول الدكتورة الصباغ - لطفلة صغيرة عمياء وصمّاء وخرساء[1].

وحين بلغت السادسة من عمرها حدثت المعجزة، حين تعهّدتها معلِّمةٌ مبدعة تُدعى «آن سوليفان»، استطاعت بصبرها وإبداعها أن تعلِّم «هيلين»

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص١٤٤.

القراءة، ثم حدثت معجزة أخرى بأن تعلَّمت الكلام، وبذلك فتحت لها معلمتها أبواب العالم والحياة.

وفي سنة ١٨٩٦ دخلت مدرسة «كامبردج للفتيات»، ثم تقدَّمت لامتحان القبول لكلية «راد كليف»، ونالت درجة الشرف باللغتين الإنكليزية والألمانية، ثم تخرجت بمرتبة الشرف بعد سنتين. وفي كل هذه المرحلة لم تفارقها معلمتها، بل اختارت أن تعيش معها في المنزل الذي اشترته «هيلين» من بيع مخطوطة كتابها الأول «قصة حياتي».

وترى الدكتورة الصباغ أن المعلمة «آن» لا تقلّ إبداعًا وعبقرية عن «هيلين»، فقد استطاعت أن تحوِّل الطفلة العمياء الصمّاء الخرساء إلى كاتبة على مستوى العالم.

وأخيرًا تستوقفنا الدكتورة الصباغ فيما بين الصين والولايات المتحدة، لتقصَّ علينا سيرة الكاتبة الأمريكية «**بيرل باك**»، صاحبة رواية «الأرض الطيبة»، التي فازت بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٨.

وُلدت «بيرل باك» عام ١٨٩٢، وكان والداها على درجة عالية من التعليم والثقافة، ويعملان لدى مكتب التبشير في الصين. وقد عاشت أربعين سنة من حياتها في الصين تنهل العلم من مدارسها، وتقرأ الحياة في عيون الصِّينيِّين الذين أحبَّتهم واختلطت بهم، وعاصرت مرحلة الثورات المتتابعة في الصين، ثم تزوجت بشاب أمريكي يقيم في الصين يُدعى «جون باك».

وفي عام ١٩٢٥ انتقلت مع زوجها إلى الولايات المتحدة، فانتسب زوجها إلى جامعة «كورنل»، وعملت هي على التحضير لدرجة الماجستير في الجامعة نفسها. وتصف «بيرل باك» ما عانته من فقر حين عادت إلى الولايات المتحدة

بقولها: «كنت أشتري بيضًا لفردين فقط ابنتي وزوجي، وقطعة محدَّدة من اللحم في الأسبوع ... وعندما كانت تنام الطفلة وينصرف زوجي إلى كتبه كنت أذهب سيرًا على الأقدام، وخلال الغابات، إلى الجامعة والمكتبة»[1].

وأمضت بيرل بقية حياتها متنقلة بين الصين والولايات المتحدة، وزارت دولاً كثيرة في أوروبة وآسية، وتوفيت عام ١٩٧٣، بعد أن تركت كثيرًا من المؤلَّفات في فن الرواية، أشهرها «الأرض الطيبة» التي فازت بها بجائزة نوبل.

*****

لقد أرادت الدكتورة الصباغ من كتابها هذا أن تدعو المرأة العربية إلى الاقتداء بالعبقريات النسائية، وألا تُضيِّع وقتها في الكسل والأباطيل، وأن تنطلق بأجنحة العمل والاجتهاد، لتكون في المجتمع نبعَ عطاء، وغيثَ رحمةٍ، ونورَ علمٍ ومعرفة.

وصوَّرت للمرأة نماذجَ من النساء الناجحات، ثم بيَّنت من تفاصيل سِيَرهنَّ أن العقبات الاجتماعية جدار وهميّ، يُمكن اجتيازه بالصَّبر والعمل، وأن أسوار السجون والقواقع سوف تتهدَّم وتتحطَّم أمام التصميم والاندفاع.

وهي تنكرُ على المرأة العربية أن تتعلَّق بحُجج تُسوِّغ للكسل والبلادة، كالتقاليد الظالمة والعقبات الاجتماعية، فهي تعترف بوجود صعوبات في طريق المرأة، ولكنها تؤمن بأن مَن تمتلك الأجنحةَ لا تعوقها الأسوار، ومَن تمتلك النورَ لا بدَّ أن تجد كوّةً تنبعث منها إلى الحياة، ومَن تمتلك العقلَ والتَّصميم فلن يخيفها طولُ الطريق، ولن يهتزَّ قلبُها من رؤية السراب في النهار، أو سماع الأشباح في الليل.

---

(١) من الأدب النسائي المعاصر ص١٩٣.

وممّا يلفت الانتباه أن الدكتورة الصباغ تُطالب المرأة بالعمل والعطاء، انطلاقًا من واقعها، ودون أن تندب حظَّها لأنها أنثى، أو أن تطلب من القدر أن ينقلها إلى كوكب آخر. إنها دعوة موضوعية وعمليّة في آنٍ واحد، ضمن معطيات الواقع، وضمن المسالك التي رسمتها التقاليد، دعوة إلى التكيُّف مع الظروف المحيطة، واحترام خصوصية المجتمع وأعرافه، والانضباط بالخلق والعفة والدين، ثم الانطلاق من الكوى والنوافذ المتاحة نحو ميادين العلم والعمل والإبداع.

وهذه الدعوة تختلف عن توجُّهات كثيرٍ من النساء اللواتي دافعن عن حقوق المرأة، كما ظهر في الفصل الأول، إذ إن الواحدة منهنَّ تُبالغ في تصوير القيود والعقبات التي يفرضها المجتمع على المرأة، وكثيرًا ما كانت تنتهي إلى أن المرأة لا يُمكنها أن تنطلق في طريق العلم والإبداع، إلا إذا تخلَّصت من التقاليد، وهدمت خصوصية المجتمع، ونبذت ضوابط الأخلاق والدِّين.

ومثل هذه التوجُّهات جعلت المرأة في مواجهة مع التقاليد عامةً، مع أن منها ما هو صالحٌ ومفيد للحياة، ودفعتها إلى رفض كلِّ الأعراف والضوابط الاجتماعية، مع أن منها ما هو ضروري لصون كرامتها وحفظ عفّتِها، وشغلت المرأة بمحاربة المجتمع بدل أن تشغل نفسها بما يُسهم في رقيِّ المجتمع، وخلقت في النهاية من المرأة كائنًا كئيبًا سوداويًّا، يتقوقع على ذاته، ويحقد على مجتمعه، وينتظر بكسلٍ وبلادة أن يحترق المجتمع الذي يعيش فيه، ليخرج من بين الرَّماد إلى الحياة!

* * *

عاشرًا ـ فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو[1]

الفارس دارفيو تاجر ورحّالة فرنسي، وُلد في مرسيلية، الميناء الفرنسي الشهير على البحر المتوسط، عام ١٦٣٥م، وفيها توفي عام ١٧٠٢م، بعد حياة حافلة أمضاها في التجارة والتطواف في البلاد العربية والولايات العثمانية، كما وُكلت إليه مهمات دبلوماسية وأخرى دينية لصالح فرنسة والكنيسة الكاثوليكية.

وقد أقام في كلٍّ من الجزائر وتونس ومصر وفي مدن شرق البحر المتوسط «بلاد الشام»، وأزمير، كما زار معظم البلاد التي كانت آنئذٍ تحت الحكم العثماني.

وكتب في مذكّراته التي بلغت ستة مجلدات ما شاهده في رحلاته، وما حصّله من معلومات عن طريق السّكان وكتب الرّحّالة الذين سبقوه، ممّا يتصل بالطبيعة ومناظرها، والسكان ونشاطهم، والمدن وأقسامها، والمساجد والأديرة والكنائس والمشافي وأحوالها، والحكّام وأنظمة حكمهم، والشعوب وما شاع بينهم من عادات وتقاليد وأخلاق وديانات، إضافة إلى أحوال الجاليات الأجنبية، والتفاصيل التاريخية.

وقد تناولت الدكتورة الصباغ في كتابها «فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو» ما جاء في المذكرات مما يخص البيئة الطبيعية والبشرية والفعاليات الاقتصادية والحياة الاجتماعية في فلسطين.

---

(١) طبع في مؤسسة المصادر ببيروت ١٩٩٦.

ورأت أن للمذكرات قيمة علمية للأسباب التالية:

١- هي مصدر تاريخي ثمين لا غنى عنه للباحث التاريخي في أحوال النصف الثاني من القرن السابع عشر، ولا سيّما الباحث في عالم الدولة العثمانية، والبلاد العربية، بل والباحث في أحوال فرنسة والبلاط الفرنسي.

٢- تضمُّنها معلومات جديدة ومفصّلة مدوّنة بعرض منطقيّ سليم، ومحاكمة دقيقة، وأسلوب طليّ وواضح، وروح نكتة محبّبة وعفوية مشوقة ونقد ذكيّ وتعليقات تدلّ على سعة اطلاع وعمق ثقافة.

٣- أنها استوعَبَت رقعةً مكانية واسعة تشمل معظم البلدان المطلّة على البحر المتوسط، وكثيرًا من الجزر المتوسطية، إضافة إلى إلقاء الضوء على أحوال إيران والهند.

٤- تُعدّ مرجعًا مهمًّا للباحثين في مجالات عدة، كالتاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع والأديان والفن المعماري ونشاط السّكان.

٥- أنها تحوي معلومات هامّة عن البلاد التي زارها لا تحويها مصادر أخرى.

٦- معظم المعلومات الواردة في المذكرات قريبة إلى الحقيقة، لتمتّع كاتبها بقدر كبير من الموضوعية والعقلانية، مع أنه كان أحيانًا يميل إلى الهوى لتعصّبه للمسيحية الكاثوليكية ولبلده فرنسة وكُرهه للأتراك.

وقد قسمت الدكتورة الصباغ كتابها إلى ثلاثة مباحث:

عرضَت في المبحث الأول البيئةَ الطبيعية والبشرية لفلسطين، كما جاءت في المذكرات، ويضم هذا المبحث سيرة الفارس «دارفيو» ورحلاته في أنحاء فلسطين، ووصفه لطبيعتها ومدنها وطرقاتها.

وعرضَت في المبحث الثاني ما جاء في المذكرات عن نشاطات السّكان في

مجال الزراعة وتربية المواشي وصيد الأسماك وتربية الدواجن والسياحة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية.

وعرضت في المبحث الثالث ما جاء في المذكرات عن الحياة الاجتماعية في فلسطين، التي تحدَّث فيها «دارفيو» عن دويلة بني حارثة في جبل الكرمل، وثورات الفلاحين، وغزوات البدو، ورحلات القنص، وعادات السّكان وأخلاقهم وأساليبهم في الحياة، ونشاطهم في مجال التعليم والعمل والحرف.

وختمَت الدكتورة الصباغ كتابها بالحديث عن أهمية المذكرات، وقيمتها في تصوير مرحلة زمنية من تاريخ فلسطين، تغطي النصف الثاني من القرن السابع عشر.

* * *

الخاتمة

عرضتُ في الفصل الأول، من هذا البحث الموجز، الرحلة العلمية للدكتورة ليلى الصباغ، والآفاق الرحبة التي ارتقى إليها فكرها وإبداعها، كما تحدَّثت في الفصل الثاني عن مؤلَّفاتها المنشورة، وما تحويه من مضمون علمي، ونظرات فكرية، وخلاصة تجربة إنسانية فريدة.

وقد تبيَّن من هذا العرض الموجز أن الإبداع لا يرتبط بجنس بشريّ واحد، وأن عطاء الإنسان ليس له حدود، وإنما يتوقَّف على مدى استعداده للعمل وبذل الجهد، ومدى تحلِّيه بالصبر وحبّ التضحية، ومدى تطلعه إلى الإسهام بجدّيّة في الحضارة الإنسانية.

لقد قدَّمت لنا الدكتورة ليلى الصباغ بعلمها وصبرها وإخلاصها وتضحيتها نموذجًا خالدًا للمرأة العربية، التي اعتنقت مبادئ العلم، وسارت فيه إلى أعلى المراتب، وتركت بين أيدينا تراثًا فكريًّا يُشعّ بالنور، وسيرة عطرة تفوح بالعفة والخلق القويم، وباقة من أزاهير العاطفة التي ستبقى تنبعث من رحيقها كل معاني العطف والرحمة والحب.

* * * * *